

للملائكة وجهٌ آخر

تأليف

إنجي صالح

الطبعة الأولى
الكتاب : للملائكة وجهة آخر
المؤلف : إنجي صالح
تصنيف الكتاب : رواية
لوحة الغلاف : يوروز
تصميم إخراج : احمد عبد الحليم
المقاس ٢٠ × ١٤
رقم الإيداع : ٢٠١٥ / ٢٠٤٥١
الترقيم الدولي : 5 - 118 - 776 - 977 - 978

دار يسطرون



طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم

المدير العام : أحمد فؤاد الهادى

رئيس مجلس الإدارة : عماد سالم

بريد إلكترونى : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

فى نقطة ما على خط الزمان الوهمى، فى إحدى جهات الأرض الأربع، وقعت أحداثُ روايتنا، لأناسٍ.. ليسوا غريبين عنا؛ عاشوا معنا و عاشوا فينا؛ عرفناهم كما نعرف أنفسنا. الشئ الوحيد الذى يَفصلُهُم عن واقعنا هذا أن أحدا لم يخبرهم قط أن.. للملائكة وجهها آخر.

الفصل الأول

– لحظة واحدة!

تضع سماعة الهاتف جانبا و تقف بقوامها المشوق. تقترب من النافذة لتغلقها فتخفت الضوضاء قليلا، ثم تعود إلى المقعد و تلتقط السماعة مرة أخرى:

حسناً (ليليان)! ماذا كنتِ تقولين؟

– أقول لم لا ترحلين ببساطة (كارما) إن كان هذا ما تريدين؟

– أنت تسخرين مني. أليس كذلك؟

– ممم... ليس تماما. أنا فقط لا أفهمك! إما أنك مثالية للغاية أو متمردة للغاية.

– أو أنك ساذجة للغاية! أو أنك جائعة للغاية و شهوة بطنك قد هيمنت تماما على عقلك فاستحال دلوا من القشدة!

وضعت سماعة الهاتف دون وداع و ليس هذا بشئ يزعج (ليليان). ليس فقط لأنهما كالأختين، و ليس لأن (ليليان) بطبعها فتاة مسالمة تنمو حيث تسقى، لكنها على الأغلب قد حفظت

أفعال (كارما) و إن عجزت عن تفسيرها. هي تعلم تماما ما تفعله هذه الشابة الغريبة - كما يصفونها - حينما تضيق روحها بفعل أو حديث؛ فهي.. تختفى ببساطة. تفعل ذلك معها في أحاديثها الطويلة أطراف الليل و النهار، و مع والدتها التي شابهتها صورة و خالفتها ضمنا - و إن كان أجدر القول أنها خالفت الجميع-، حتى أنها طالما فعلت ذلك مع والدها الذى رحل منذ سبع سنوات حين كانت مراهقة فى الثالث عشر، و الذى لا تنفك تكرر كم أحبها كما لم يحبها أحد قط. تعلم أيضا ما تفعله عندئذ، حين تنفرد (كارما) فى غرفتها - كمعظم الأحيان-؛ تختفى بين سطور إحدى روائع الأدب العلمى، أو تذوب كما ملح البحر فى مياهه فى مقطوعة موسيقية "تجسد واحدة من أجمل صور إعجاز الخالق فى خلقه، و إبداع الفنان الأعظم إذ ما صور فنانا" كما عبرت لها ذات مرة.

كان لتلك "النعم" الفنية فى نفس (كارما) ما تعجز عن وصفه أحرف أعظم اللغات؛ يعترض ذلك كله سؤال يقفز له كيانه فى غير هدوء: كل هذا الجمال فى الكون يا (كارما) و أنت لا تدريين؟! ماذا هنالك من الجمال بعد لا تدركين؟ فى الآفاق التى لم تفتح أمام عينيك.. فى النطاقات التى لم تشملك رغم اتساعها اللامحدود، لبعذك الفارق عنها،

فى الموسيقى التى لم تُسمع بل لم تُخلق بعد على يد
فنان! فى الحروف التى لم تُقرأ أو قُرأت و لم تُدرَك أو أُدرِكت
و نسيتهَا العيان، فى نقطةٍ ما فى عمقِ الزمان .. حيث أُبعد
ما يمكن للروح أن تصل و للعقل أن يدرك و للنفس أن تتأمل.

كل ذلك تعلمه منها (ليليان) رغم أنها -فى العادة- لا
تفهم من كلماتها شيئاً. لكن مؤكد هى تذكرها جيداً تلك
اللحظات حين يأخذها شغف الخيال، فتخبرها كم تتوق
للإبتعاد عن هذى الجهة من الأرض "التى لا تعرف سوى
مفردات المادة و الشهوة، والكفر و الحرب" إلى إحدى عواصم
الفن و الأدب حيث تتغذى الروح و الذهن خير غذاء:

آه يا (ليليان) عندما أقرأ إحدى كتب الميثولوجيا، أرى
نفسى أجول شوارع الإغريق العتيقة، حيث عبق الأدب و
الحضارة يفوح من الأرض، المباني، الأعمدة و الحجارة، أو
أستمع إلى واحدة من تلك الموسيقى، فإذ أنا فى إحدى قاعات
الأوبرا الإيطالية أستمتع بأنغامهم العذبة، ثم أخرج فأسير
فى شوارع (روما) حيث الرسامون اتخذوا أماكنهم فى زوايا
الميادين الحية و على طول سور المتوسط؛ يستلهمون الطبيعة
الرائعة أمامهم وهؤلاء الذين يرقصون بشغفٍ رقصةً للروح و
الفن و الحياة، أو لأجد نفسى بين أضواء (باريس) أو فى

ساحات (برلين)، حيث الفنانون على اختلاف أرواحهم ينحتون، يصورون و يرسمون، يكتبون الشعر و يؤلفون الموسيقى.

تعلم كم من مرة إذ يضيق بصديقتها المدى فتتمنى لو انطلقت تركض فى الآفاق المفتوحة ليس بينها و بين السماء حاجز، فى لحظات تتحرر روحها مما يقيدها و يتخلص ذهنها من سموم تتسرب إليه كل لحظة عن طريق اللاوعى، فتصبح فوق قشرة الأرض خفيفة.. كريشة سقطت من السماء إلى الأرض كما هو حال (آدم) و بنيه. كم من مرة بدلت ثيابها و فتحت بابها فكادت تفعل، و ما منعها عن ذلك سوى صوت العقل، الذى يأتي أحيانا مغايرا لحاجات النفس أو مقيدا للروح، خوفا على صاحبه من تلك الكائنات الغريبة التى لا تشبه شيئا مما جبله الله؛ يطلقون على أنفسهم لفظ البشر و ينعنون أنفسهم بنعت الإنسانية و هم أبعد ما يكونون عن ذلك الكائن القدسى، الذى يحيا بنفخة من روح الإله الأحد و سجدة من ملائكة النور. أناس لا همّ لهم سوى مسح الشهوات على اختلافها و التى لا تزيدهم سوى شراة و كره لأنفسهم و حيواتهم، التى لا ينفكون يلعنونها ليلا و نهارا و يستميتون عليها رغم ذلك بكل الطرق. إيمانٌ بعضهم كفرٌ بعضٍ و كفرهم إيمان.

(كارما) حسناء عشقتها الطبيعة كما تعشقها فمئحتها من ألوانها الكثير. فى عينيها لون الشجر متوهجا بوميضٍ من النار. شعرها كخشبٍ غاباتٍ تعكس أشعة خالصة من نور الشمس؛ امتزجت به امتزاجا تاما حتى ليحترار الرأى: هل منحت الشمسُ الخشبَ لونها أم منحت الأخشابُ الشمسَ الانعكاس؟! رغم ذلك.. لم يكن خوفها وليد هوسٍ بسبب جمالها ولا مبالغةٍ لمئحتها ذاك المحيط، لكن عن ذلك أخبرت صديقتها:

اسمعينى (ليليان)! فى بلادنا لا تشرق الشمس. هنا أطفالٌ لا يعرفون البراءة ورجالٌ لا يعرفون المروءة، إناثٌ مات جمالهن على المرايا وقُتلت أنوثتهن على الطرقات، أديانٌ تهتك فوق المنابر و المذابح، أرضٌ لا تعرف الحق أو الأمان.

هكذا كان حال هذه الجهة من الأرض. وهكذا كان شعور (كارما) بالقيد التام لا ينقشع إلا على أعتاب سمائها الخاصة.

دخلت أمها بينما وقفت تنظر من النافذة المطلة على ازدحام دائم:

— ألم تبدي ثيابك بعد؟!

— و لم قد أفعل؟

- لأنك ستأتين معنا و (ريان) فى نزهتنا بسيارته.
- ها أنت قلتها، نزهتكم ! ليس لى بذلك شأن.
- ستأتين يا (كارما)، و اتقِ شر غضبى و نفاذ صبرى!
- لن أذهب و لا أدرى ما المغضب فى ذلك!؟
- ”ماما!“ جاء صوت أخيها الأصغر مقاطعا حديثهما
مصاحبا صوت الإنذار المتكرر من سيارة (ريان).
- هذا الغبى ذو السيارة الفارهة! ألا يمكنه أن يوقف صوت
سيارته المزع ؟!

ضحكت (كارما) بصمت و هزت رأسها فى سخرية من تعليق
أمها الذى قالته قبل أن تغادر الغرفة على عجل، بعدما رمقتها
بنظرة مليئة بالوعيد و الغضب؛ اتسعت فيها حدقتا عينيها إتساعا
مخيفا. أدارت وجهها لتستمر فى التحديق إلى الزحمة والعوادم
بالخارج، حتى ظهرت أمامها السيارة التى تحمل أهل بيتها
و جارها. تتبعتها بنظرها و هى تتبعد فتصغر شيئا فشيئا حتى
اندثرت بعيدا. ابتعدت عن النافذة و راحت تجول أرجاء المنزل
فى ضيقٍ من أمرها كله. مجموعة من المشاعر الرهيبة تحاصر
روحها و مداها كاملا، كشخصٍ قُبِر حيا فى عنفوان حماسه و

شبابه، ميّت قد ملّ انتظار البعث، سجينٍ ينتظر الإطلاق لا يدري من يحمل مفتاح زنانه، كمن يكتم فى قلبه صرخةً.. إن خرجت لمزقت الأضلع، و نثرت ذرات المدى و المجال. ركضت عائدة إلى غرفتها تسابقها دموع حائرة، ضالة عن وجهتها، بعيدة عن الديار. لم تدرِ إن كانت مبررة! لم تعد تدرى إن كانت تملك حق ذرفها! من على وجهه و من على الصراط؟ من أين جاءت و من أين جاءوا جميعا، و إلى أين الجميع على هذا الحال زاهبون؟ من هى و ماذا تفعل هناك؟ ماذا حدث؟! غامت الصورة ثم أظلمت أمام عقلها فجأة، حتى امتلأ قلبها من هذا الظلام رعبا.

”تحرري يا نفسي التى بين جنبى! تحرري من جسدك، من الأشخاص و الجمادات و الأشياء جميعها حبها أو كرهها! تحرري من نقاط الزمن و من زوايا الأماكن! يا نفسي التى بداخلى! قولى لى.. ماذا بروحى تفعلين؟ موتٌ بطئٌ ينتظرنا فماذا أنتِ تنظرين؟! أخبرينى.. لم لا تُطَلِّقينَ و فى الآفاقِ تُحلقين؟! للجمالِ تسمعينَ و ترتأينَ، تكتبينَ و تقرأينَ، تنشدينَ و ترقصينَ و معنى الحياةِ تُدرकिनَ. يا روحُ تقبِعي داخلى بين خيالٍ و رمق! أنورِ الشمس تفضلين أم شعاعا آفلا فى الغسق؟ أنتِ حقيقة أم سرابٌ للورى؟ ماذا تريدن -بدلا عن البحار- من الظما و عن السماءِ

من الثرى؟! يا شقائي.. يا شقائي إن تقنعى بظلالٍ وَّ صدى!

مرت بضعة أيام تجاهلت (كارما) كل ما حولها. لم تحاول أن تتجاذب أحاديث مع أمها، خاصةً بعد الصدام الشاق تلك الليلة عقب عودتها -لأنها "لا تقدر (ريان) حق قدره"- . لم تعد تفكر أن تبذل عناء محاولة اطلاع (ليليان) عمًا بها. قضت ليلها و نهارها تفكر:

لم غامت الصورة لهذه الدرجة؟ أين إطارها و ألوانها ومحتواها؟ متى حل الظلام فضاعت اللقطة؟ أين أنا من لقطة الإعادة قبل أن يتحول المشهد أو يحول الليل؟

فكرةٌ واحدة تسيطر عليها .. الخلاص، الخلاص من المحيط الذى سأمته و سأمها. لابد و هناك منفذ إلى واقع جديد؛ تجد فيه لنفسها و أفكارها و فلسفتها فى الحياة مكانا. تأملت و تتبعت خيوط أفكارها و أحلامها حتى عادت الصورة واضحة أمام عينها، كاملة فى ذهنها ربما كما لم تكن من قبل. صورة للحياة الحقيقية التى تريد، و التى طالما بحثت عنها فى واقعها و لم تجدها. صورة لذلك المر الذى سيأخذها إلى هناك.. حيث كانت فى الخيال ذات مرة.

الفصل الثانى

مرّ ما يقرب الشهر و (كارما) تحضر لخطتها المثالية التى ستخرجها من هناك. تدرك أن من الخطة حياة، ولأن حيواتنا وحيدة الاتجاه - ما من مجالٍ للعودة إلى الوراء و ما من متسعٍ زمنى للتردد- فهكذا على بعض الخطط أن تكون؛ ما من مجالٍ للخطأ و لا مدىً للتغيير.. مثالية و مطلقة.. تماما كالحياة التى نود؛ نبذل وسائلنا و نقدم كل غاياتنا فى سبيل حلمنا الأسمى فيها، فالطريق وحيد الاتجاه، و ربما سره أنه لا يعيدك لذات الجحيم ثانية.

جلست على كرسىّ فى منتصف الشقة الخالية من الجميع إلا هى. تنتظر زائرا.. الخوف يملؤها. ”يا نفسى التى بداخلى لا تخافى و لا تخجلي ! .. إن أردت حياة الروح فما للجسد من قيمة.“ نظرت فى ساعة يدها؛ دقات قلبها تسارع عقربيهما.. رهبة وتردد عظيمان. ”لا عليك يا (كارما).. ما ذاك الجسد إلا مرقد للشهوات و محط للرغبات. أو لا يرمّدون أجساد الموتى كى

تحلق أرواحهم حرّةً فى السماء، فلا تعود و تنظر إلى الأرض أو تتشبث بجسدٍ مدفونٍ بين طياتها، ولا يعود يربطها بها رابط؟ أوليس هذا وثنهم الذى يعبدون؟! اللعنة عليهم و على إلههم البالى..“

قطع حديثها مع نفسها صوت أقدام -من الخارج- تقترب. أنصتت بسكون تام قطعه جرس الباب حتى لانتفض جسدها و مضغتها معا. نظرت فى المرآة بجوار الباب بشكلٍ تلقائى. كان وجهها الجميل يعلوه الاصفرار. ”ما هى إلا خطوة واحدة نحو المنفذ.“ استقامت فى مشيتها و توجهت نحو الباب فى ثباتٍ و ثقة مُفتعلين .

— مساء الخير يا (كارما)!

— أهلا (ريان) كيف حالك؟

— بخير.

— الحمد لله. آه .. تفضل!

— شكرا! أخبرتنى أنك تريدن التحدث معى!

دقات قلبها تعلو فى أذنيها. تعلم أن قلبه كذلك رغم ما يظهره من جدية و جفاف معاملة، فحبه لها لم يخف يوما على أحد.

”ها أنا أستمتع.“ تطلعت إليها عيناه بفأض من الحب و
الجزع، من جبهتها العاجية مرورا بجسدها الذى يغطيه ثوب
صيفى من القماش الأبيض، حتى قدميها الرقيقتين اللتين التفتت
حوليهما شرائط نعلها الأزرق. استجمعت ما بداخل رأسها من
بقايا أفكار و ما على لسانها من حروف، بينما مشاعر الخوف
و التردد تغيم بها من كل ناحية. اقتربت من مقعده حتى لم
يبقَ بينهما سوى المسافة الحميمية؛ ما زاده توترا و شوقا كما
توترها و غصتها.

— (ريان) أعرف أنك .. أعنى أن ما أود قوله هو... حسنا!
من الواضح أنى لا أعرف ماذا أقول؟!

لاقت عيناها عينييه السوداوين. كان وسيما أسود الشعر
ينبض بالرجولة و الصرامة. مدت أناملها الرقيقة فلامست عنقه
الصلب و عيناها تعكسان ضعفا و رهبة. جذبها نحوه بقوة
من ذراعها و نفتت فيها شوقه كما تُنْفَت شعلة السيجار.

— أحبكِ (كارما). آه منك يا (كارما) آه. أنتِ تحبيننى؛ نعم!
تحبيننى كثيرا...

”لا قيمة للجسد فى سبيل الروح إذن؛ ذلك الجسد الذى يعيشون أسرى له و لرغباته؛ يُسجنون عمرهم فيه و يموتون فيه فلا يعيشون أبدا. هل هذا ما يريدونه؟ هل هذا ما يسجننى؟! حسنا! سأتخلص منه فلا يطاردونه ولا يطاردنى، فيصبح الطريق وحيد الاتجاه؛ يأخذنى إلى هناك دون احتمال للرجوع. نعم.. لا مجال لفشل الخطة، فالطريق وحيد الاتجاه.“

الفصل الثالث

— أنستي .. آنستي!

انفتحت عيناها الكبيرتان فرأت وجه المضيئة البشوش
يبتسم فى وجهها:

عذرا! أحضرت لك شرابا لأنك لم تطلبي شيئا منذ أقلعنا،
كما أننا على وشك الهبوط.

أومات (كارما) ببسمة ممتنة ناعسة ثم نظرت عبر الزجاج
عن يمينها. رأت سماءً هادئة؛ توحى نعومة الأشعة الذائبة بين
سحبها المتعاقبة لما بعد العصر. أمسكت الشراب المنعش أمامها
و شربته دفعة واحدة فإكتشفت مقدار عطشها. نظرت فى ساعة
يدها التى سرعان ما تنبهت أن وقتها لم يعد ذا معنى. فى اللحظة
ذاتها، جاء الصوت الخلفى من الطائرة يعلن الاستعداد للهبوط.
و فى مكانٍ آخر على هذه الأرض، كانت السيدة الجميلة
تجمع تلك الحروف بخط ابنتها بين شتات السطور:

” أمى ..

لا تعرفين كم أمسكت من قلم و مزقت من أوراق كى
أخبرك بما تقرأين الآن. لقد أحببتنى دائما و تعلمين كم أحبك
رغم كل شئ. أدرى أنك لم تريدي لى يوما سوى الأفضل، كما
تدريين أننى لم أكن لأقوى على البقاء و أنت أعلم الناس بذلك.
لقد ابتعدت يا أمى إلى حيث أردت أن أكون دائما، حيث
أجدر بي أن أكون و يُقدر لى أن أكون، حيثما تشرق الشمس يا
أمى، حيث أبعد ما يمكن للروح أن تصل و للعقل أن يدرك و
للنفس أن تتأمل.. لأرض (آدم و حواء) التى لم نرها نحن. رحلت
و لن أعود إلى أرضكم أبدا، بل سأنسى أننى جئت منها يوما،
لكن لن أنساك و سأصلى لأجلك دائما و لأجل سعادتك؛ إنى
أعلم أنك سعيدة حيث أنت، فكوني سعيدة من أجلى، فأنا
أبدا سأكون.“

انطبقت الورقة باليد الكهلة بعدما مرت بها دمة، سقطت
بعد أن لامست شفاة، رسم الوجع عليها ابتسامة.. ابتسامة
أمل فى السعادة الدائمة لمن نحب، أمل أن يصحبهم الخير
وأن تحالفهم السعادة، أمل أن يجدوا ما يأملون حيث يأملون..
أمل و إيمان فى لقاء قريب يجمعنا بهم و لو على غير موعدٍ.

خرجت (كارما) من الطائرة فشعرت بنسمات الهواء الوافرة من كل جانب تنعش حواسها. عانقت مقلتها الأفق المفتوح أمامها؛ ها هما يتقابلان ليس بينهما حاجزٌ. كانت تنظر فى الوجوه حولها بينما تتحرك عبر مراحل المطار، وجوه لم تميز منها أحدا بل لم تميز لها أرضا. ”على الأرجح كل هؤلاء هاربون -مثلى- إلى النعيم.“ أنهت مرورها فى المطار الواسع سريعا، و ساعدها أنها لم تحمل سوى حقيبة يدها. فى الخارج، وقفت برهة تستوعب كل ما هى فيه، كل المسافة التى قطعت وصولا لتلك الأرض التى تقف فوقها. ”يا إلهى! لم أحسبني هبطت فى يوم عيد!“ على بعدٍ ليس كبيرا من المطار، رأت ميدانا فسيحا انتشر فيه الخلق فى حرية يسرون و يضحكون، أطفالا يركضون حاملين الحلوى الملونة. شعرت أنها أمام لوحة زاهية للمدينة السعيدة أو نموذج من الصلصال الملون لهذه المدينة الجميلة. ”بحق الفردوس! هل أنا حقا هنا؟!“

اقتربت لتصبح جزءا من اللوحة البهية. تحركت بين هؤلاء الخلق المشرقين كأشعة الشمس البكر. تسير بينهم و تتنقل بعينيها فى غيث مشاعر من النشوة و الدهشة يصعب وصفها. كأنها سقطت فى حلم باسم لا تود أن تخرج منه أبدا -ولا أحد قد يفعل-، حتى وجدت نفسها واقفة أمام شاب

يمسك جيتارا. يعزف واحدة من موسيقاهم المفضلة بأنغام تنبض حلاوة، و من جواره صبيحةً صهباء تخطو و تتراقص بعذوبة. رفعت عينيها إلى السماء فلمحت فيها خيطا ليليا يداعب بياضها. أثار في ذهنها حقيقة أنها لا تعرف أحدا في هذا الليل الآتي، و أن خطتها لم تكتمل، بل ينقصها أهم ما فيها؛ هو ما أتت لأجله من بلادها البعيدة، و ما جعل اختيارها يقع على هذه الأرض بالذات دون غيرها.

لم تسر كثيرا حتى وصلت محطةً، حيث استقلت مباشرة الحافلة التي قادتها نحو وجهتها. بعد نحو ساعة، وقفت -وقد خيم عليها الليل- وسط أراضٍ واسعة من الأخضر الذى لم يعد لونه واضحا فى الظلام، لكن روائحه تتناثر بكثافة فى هواء الليل القشعريرى فى الناحية الهادئة، و مزيج من أصوات أسلاك الكهرباء و الحشرات بين النباتات و المروج. بدأت ذبذبات البرد تسرى تحت جلدها، و يصعب الجزم ما إن كان وحده الطقس الغريب سببها. أخذت نفسا عميقا و بدأت بالسير. بدت لها كل البيوت فى هذا الظلام لا تميز نفسها على الإطلاق. اقتربت من الأول أمامها و قرأت رقمه، ثم راحت تهزول على الطريق بين المنازل بحثا عن واحد.. هو مقصدها.

بعد سير ليس بقليل على المسافة الصغيرة، ميزته لحظة لمحته. لم تدرِ كيف، فلم يختلف عما حوله من منازل قليلة! اقتربت نحوه في خطواتٍ بطيئة، وقد وصل إرهاقها حداً باتت تشعر معه أن حواسها لم تعد تميز سوى رائحة رهبتها ورنين توترها. عبرت بوابة صغيرة مفتوحة للحديقة أمام المنزل، ومشت بضع خطوات حتى ظهر لها الباب الخشبي الصلب كحارسٍ ضخمٍ يتعمد إخافتها. مدت أناملها لترن الجرس ولكنها عادت وأبعدتها. رفعت قبضتها لتدق على الباب ثم أنزلتها، وفجأة.. رفعتها عالياً ودقت بعصبيةٍ وإصرارٍ؛ ربما كان ذلك إرهاقها الذي لم تُعد تتحمله.. وربما خوفها من الظلام والهدوء الراقدين حولها؛ على الأغلب كانت تعاند توترها وتقاوم رهبتها، وتتغلب على تردها الذي فات أوانه.. حتى انفتح الباب فتحة اندفعت خلالها حالما انقطع عن دماغها البث.

الفصل الرابع

كانت تتقلب من جنبٍ إلى جنبٍ على الفراش الوثير حينما فتحت عينيها ثم نهضت جالسة. أمسكت أسفل رأسها بيدها حيثما شعرت ببقايا ألم قوى بينما هى تجول ببصرٍ سريع فى أرجاء الغرفة؛ تحاول تذكُر آخر ما رآته عيناها قبل أن تغيب عن الوعي. رأت نفسها فى مرآةٍ كبيرة أمامها، فتحولت ببصرها لجسدها الذى كان فى غير ثيابه. لم تملك لحظاتٍ كثيرة لتستعيد من ذاكرتها ما أرادت حتى انفتح باب الغرفة. تضاءلت بجسدها تحت الغطاء الكثيف ترقب ذلك الوجه الذى سيظهر عن الباب.

— أخيرا استيقظت! كيف تشعرين؟

— بخير.. عفوا ولكن.. من أنت؟!

— أليس من المفترض أن تسألى قبلا أين أنت؟ أو أنك تعرفين؟

— و أين أنا؟

— فى منزل (آدم أبيض). (قالتها المرأة الخمسينية بمكرٍ و سخرية تعلقو تقاسيم وجهها الجاد و فمها الحاد. ركزت بصرها على

الشابة فوق السرير مما جعلها تتململ تحت الغطاء فى توتر.)
 ”اشربى هذا.“ ناولتها كوبا بدا كالماء.

— هلاً أخبرتنى من فضلك ماذا حدث لى بالتحديد؟ من أنت
 و أين أنا؟ و أين ثيابى؟!

— أين أنت؟ أخبرتك أنك فى منزل (آدم أبيض) و أراهن
 أنى لست بحاجة لأخبرك من هو. من أنا؟ أنا مديرة
 هذا المنزل، أما ماذا حدث؟ لقد سقطتِ على عتبة المنزل
 كالقدر المعجّل فأحضرنا لك طبيباً، و من حسن حظك
 أن قال أنك تعانين إعياءً شديداً و هبوطاً فى ضغط الدم.
 لولا ذلك لاعتقد أستاذ (آدم) أنك إحدى أولئك الخرقاوات
 اللاتى يطاردنه، مع ملاحظة أنى ما زلت لا أستبعد هذا
 الاحتمال.

نزعت الغطاء عنها بسرعة و همّت واقفة إستيأً من أسلوب المرأة.

— حسناً، أين ثيابى من فضلك؟ أشكركم كثيراً على ما
 فعلتموه معى! أريد المغادرة حالاً.

— لا أعتقد ذلك ممكناً. أوصانى أستاذ (آدم) أن أعتنى بك
 حتى تستردى كامل حيويتك. ذلك طبعاً بعدما بحثنا

فى أغراضك فعلمنا أنك غريبة، ولم نعرف لك أحدا فى هذه البلاد. هيا! فلتشربى هذا الدواء بسرعة. ...”استنتجا من تعليمات الطبيب لا يمكنك المغادرة الليلة.“ أضافت بينما أدارت ظهرها، بعد أن تركت صينية بجوار السرير تحمل الدواء و بعض الأطعمة. خرجت سريعا متجاهلة تلك الفتاة التى كانت تهم بقول. ”يا لها من بداية! كيف يحتفظ فنان مثل (آدم أبيض) بامرأة كهذه فى منزله؟! أقسم أنها تطرد الوحى و الملائكة.“

شربت الدواء ثم ألقت بنفسها فوق السرير و أطبقت جفنيها بشدة. عندما فتحتهما، قابلا سقف الغرفة. اندهشت من جماله فى تصميمه الهرمى و زخارفه المتقنة. اتكأت على كوعها و نظرت عبر المكان. تعجبت كيف لم ترَ ذلك الجمال المحيط بها مذ استفاقت: ”ما هذا؟! ..أشعر أنى سقطت فى لوحة رومانية.“ كانت الغرفة قطعة فنية على الرغم من عدم إتساعها. من السقف إلى الجدران الصلبة و نقوش الأعمدة و الزوايا، قطع الأثاث القليلة و تصميماتها فى المساند و الأرجل، فى سريرها الغاوي حتى تلك النافذة الناقوسية على مقربة من إحدى جانبيه. نهضت و فتحتها فظهر أمامها امتداد فجرٍ يسافر مبتعدا عن أراضٍ واسعة من الأشجار و الفاكهة،

يخيم عليها هدوءٌ باردٌ صافٍ زكىّ. صورة واضحة لا ضبابَ فيها ولا غمام. تحركت فى الغرفة فلمحت فى إحدى زواياها بابا صغيرا لحمام تكامل معها فى الذوق و الفن. ”آه..كم أنا فى حاجة إليك!“ خلعت قطعة الثياب الخفيفة التى غطت جسدها بطوله و استلقت فى حوض الاستحمام الذى ملأته بالماء و العطور. استرخت تماما و قد بدا لها كل شئ متناغما فى البهاء و الروعة. هى الآن فى المكان الذى قطعت لأجله المسافات واختارته ليكون بوابتها إلى نعيمها المأمول.. منزل (آدم أبيض)..

إمام الموسيقى. ذلك البشرى الذى لا يشبه إلا الملائكة. موسيقاه كألحانٍ سماوية أُنزِلت مع الكتب المقدسة. الآن هى فى منزله الذى لا تشك أن يكون معبدا للفن و الروح. تذكرت جملة تلك المرأة عن ”هؤلاء الخرقاوات اللاتى يطاردهن“؛ أزعجتها و هى تتردد فى مسامعها و تسأل نفسها: هل أنا حقا واحدة من هؤلاء؟! (- بالطبع لا).. ارتاحت لما انجلت الإجابة واضحة لها، فهى لم تأتِ سعيا وراء (آدم أبيض)، لكنها أتت لتجاور موسيقاه التى عنت لها دائما انعكاسا حيا لكل معانى الروح و مبادئ الوجود، و قيم الحق و الخير و الجمال، لتُسقى فى المكان الذى نبت فيه لعلها تتطهر مما علق بها من أرضها.

من بين خيارات عدة بحثا عن منفذ للحياة و باب للبعث،

لم يكن منزل (آدم أبيض) هو خيارها و لكن ”معبده الفنى“ .
 لقد ضحّت بما لا يعلم إلا الله وحده كم كان عزّاً عليها
 أن تضحى به لتمزق شرنقة واقعها المقيت الذى كانت تحيا،
 لكنها عملت للحظة حساب الملائكة لها حتى تكون جزءاً من
 هذا المعبد راهباً فيه، تنفصل عن البشر بشروهم و شهواتهم،
 تطلب العفو و العفة بالفن و روحانياته عن كل ما فات من
 حياتها، فما كانت لتخاطر أبداً و تنسى تقديم القرابين، و
 الآن فيما تبقى لخطتها من خطوة، حتى إن خانتها الخطّة
 أو هزمتها القرابين، فلن تبرح مكانها من المعبد حتى تصبح
 -تحت جناح راهبه- إحدى ملائكته.

خرجت فوجدت ثيابها قد وُضعت بترتيب على السرير.
 ”تلك المرأة قد دخلت غرفتى ثانية!“ قالتها فى ضحكة
 شهية، ثم بدأت تتحصّر لجولتها الأخيرة.. جولة البقاء.

الفصل الخامس

ارتدت ثيابها و اختزلت شعرها الطويل فى صغيرة طالت
 آخر ظهرها المستقيم. نظرت يمينا و يسارا خارج باب الغرفة،
 ثم تقدمت نحو السلم على أول الممر و بدأت تهبطُ درجاته. فى
 الطابق السفلى رأت الباب الضخم الذى دخلت منه بالأمس.
 هدوءٌ تام يخيم على المنزل بطابقيه اللذين لم يظهر لها فيهما
 ظل. قررت العودة إلى تلك الغرفة لئلا يستيقظ أحد و يجدها
 تتجول فى المنزل، فهم لا يعرفونها على أى حال! و بينما
 تصعد درجات السلم ظهر أمامها رجل أربعينى متوسط الطول،
 أشقر جميل المحيّا، بهى الطلة كأسمك الزينة. يرتدى قميصا
 و سروالا أبيضين. ابتسامته الرفيعة على شفثيه الدقيقتين تنعكس
 فى عينيه الذهبيتين.

- أستاذ (آدم)! .. كنت أبحث عنك. (واجهت صعوبة شديدة كى
 تنتزع تلك الكلمات من حلقها بعد لحظات من ظهوره أمامها.)
- توقعت ذلك عندما سمعتك تغادرين الغرفة.
- أنا فى غاية الأسف على كل الإزعاج الذى سببته منذ قدومى.

— كيف حالك اليوم؟ (قالها و شرع يهبط ما تبقى من سالام فتبعته تلقائيا.)

— أفضل، شكرا! فى الحقيقة وددت أن أشكركم كثيرا على استقبالكم لى و أعتذر عن إزعاجكم.

— هل أحضرت لك السيدة (بلقىس) الفطور؟

— لقد اهتمت لأمرى كثيرا، لكن لا بد و أنها نائمة، فقد ظلت مستيقظة حتى أول الفجر كى تتأكد أن آخذ الدواء الذى أوصى به الطبيب و أتناول شيئا.

— جيد جدا. لندخل مكتبى إذن!

توجهنا نحو باب مزدوج عريض؛ دخلا ثم أغلق الباب. فى كل جزءٍ يُحتمل فيه للعروق وجود، كان الدم يتسابق فى جسدها تسابقا عجيبا. أملت لو تمدها الطبيعة بما يساعدها فى خطواتها الأخيرة كما ساعدتها أمس - عندما سقطت مغشيا عليها دون حولٍ منها ولا تخطيط-. كم كانت محظوظة! و كم دعّم ذلك خطتها للدخول و لقضاء ليلتها الأولى فى منزل (آدم أبيض)، و ها هى فى معبده.

تلك المرة لم يكف الاضطراب الفكرى و الشعورى حسها العميق بالجمال. فورا انتبهت للغرفة التى لم تقل جمالا وتناسقا عن باقى أجزاء المنزل، و خاصةً فى وجود البيانو العاجى فى إحدى أركانها، و النوتات الموسيقية النائمة فى أحضانه كعروسٍ فى مخدعها. ”هنا قلب المعبد، حيث تُنزلُ الأنعامُ وحيًا فردوسيا و حيث تُتلى لأول مرة!“

— تفضلي بالجلوس! (أفاقها صوته الرخيم من شرودها و سحابة أفكارها. جلسا على كرسيين متجاورين فى صدر الغرفة.)

”ماذا تشربين؟“

— لا شئ. شكرا!

— كوبا من المياه؟

— لا أشرك!

— حسنا آنسة (كارما)! أسمحين لى أن أستفسر عما حدث بالأمس؟

— بالتأكيد! كل ما فى الأمر أننى عانيت إرهاقا و.. أشكركم حقا على...

— هل من الممكن أن تتوقفى عن شكرى لاستقبالك و اعتذارك

لإزعاجي من فضلك!

توترت في مكانها أكثر بالرغم من أناقة أسلوبه.

”علمت أنك لست من هنا و لم يظهر لنا فى بحثنا بشأنك أن لك أحدا فى هذه البلاد. صحيح؟“ قالها و شرع يشعل سيجارا سحبه من علبةٍ على المنضدةِ بينهما.

— نعم.

— وصلت هنا البارحة فقط. صحيح؟

— صحيح.

— إذن هل يمكننى أن أعلم ماذا حدث معك لتصلى بحالة البارحة؟ و أرجوك لا تكررى شكرا أو اعتذارا؛ فقط أخبرينى ما حدث.

أجابت و هى تضم كفيها معا فوق ركبتيها؛ وجهها لأسفل و قد انسدت ضفيريها الطويلة عن إحدى كتفيها:

— لقد وصلت هذه الناحية عن طريق الخطأ بحافلةٍ استقللتها فور وصولي. كان الليل قد كسا و الظلام شديد، و بعد مشي مسافة، شعرت بظل يتبعنى. ركضت حتى وجدت حديقتكم مفتوحة، فدخلت على الفور و بعدها حدث ما تعرفه حضرتك.

- نعم .. (كارما) دعيني أسألك و أنا أكبرك ربما بما يكفى
من سنوات لأكون والدك؛ ماذا تفعل فتاة فى عمرك فى
بلاد لا تعرف فيها أحدا بمفردها؟
- بدأت تميز تلك النقطة الفاصلة التى وصلها حديثهما.
- لست صغيرة كما تظن أستاذ (آدم)! أتممت -مؤخرا- عامى
الواحد بعد العشرين.
- وليكن! ليس معنى أن القانون يخولك السفر، أن بمقدورك
التواجد وحدك فى بلادٍ كهذه.
- ماذا تقصد حضرتك بـ ”بلادٍ كهذه؟!“. (قالت فى حنقٍ
مكتومٍ مذعور، و كأنه توا أهان شيئا منها.. استأنفت فى
هدوءٍ مضطرب):
- إنها بلاد رائعة، و أنا فتاة متعلمة و أستطيع أن أعتمد
على نفسى، و أصنع لنفسى حياة كريمة.
- أفهم من هذا أنك جئت للعمل؟
- أستاذ (آدم)! أخشى أنى أزعجك حقا، أو أنى سأقحمك
فى تفاصيل لا تهمك فى شئ.

— لقد سقطت أمام منزلي البارحة— فى حالة مضنية— إن كنت لا تنتبهين لذلك! و لعلمك الحياة هنا ليست سهلة كما أراك تعتقدين! أنت شابة صغيرة و لا يسمح لى ضميرى أن أفتح لك الباب و أدعك تخرجين، و أنا على علم بما قد تواجهه فتاة مثلك خارجا فى بلادٍ (كهذه)، و بالمناسبة، ليس بالضرورة أن تعنى ”كهذه“ شيئا سيئا، لكنها بلادٌ كبيرة و لا تعرفين فيها أحدا! و لا تكرررى على مسامعى أنك متعلمة و تستطيعين الاعتماد على نفسك، فالأمور لا تسير بهذه السهولة.

ظل وجهها لأسفل و قد بدأت دمعاً تتجمع فى عينيها.
تقدم نحوها برأسه :

”هل جئت للعمل؟ أم جئت لشخص ينتظرك.. أو أنك تبحثين عن أحد ربما، أو عن شئ هنا؟ أو هى رحلة فقط؟ أخبرينى كى أعرف كيف يمكن أن أقدم لك المساعدة.“

إذ بتلك الصغيرة أمامه ترفع قبضة إحدى كفيها المضمومين لتفرك عينيها اللتين قد بدأ يتساقط الدمع منهما.

”أنا حقا آسف! لا أقصد إزعاجك أو التدخل فيما لا يعنينى. فقط أحاول المساعدة لأنى أرى بوضوح أنك..“

— أستاذ (آدم).. صحيح أنا ليس لى أحد هنا. لم آت لأقابل أحدا ولا أحد ينتظرنى (قاطعته و الدموع تنهمر من عينيها، متقطعٌ صوتها.)

”و لم آت للعمل بشكلٍ أساسى أيضا. لقد جئت هنا هربا.“

— هربا من ماذا؟! (تطلع إليها بإهتمام و ترقب بالغين.)
 “.. لا تخافى! أكملى مِمَّ تهربين فى بلادك؟!“

— لقد... لقد اغتصبنى أحدهم.

سقطت رأسها فوق ركبتيها و علت تقاسيم وجهه علامات الألم و التأثر. ربت على كتفها و لم يُعد يدرى ما يمكن قوله لتلك الصغيرة الجميلة، الغريبة الباكية، الهاربة من الشؤم.

— حسنا.. أفهم تماما الآن. و أنا .. آسف حقا!

رفعت وجهها قليلا و قالت بلهجة تملؤها المرارة:

— لا عليك! من حقك أن تعرف بمن احتفظت فى بيتك الليلة السابقة، لربما كنت سارقة أو هاربة من العدالة، أو أنى مجرد معجبة طائشة تطاردك كما نعتنى سيدة (بلقيس).

استمر رابتا على كتفها، ناظرا بعطفٍ حقيقى للدموع المتساقطة من طرفى عينيها.

- ماذا تقولين؟! بالطبع لم أكن لأفكر هكذا بشأن فتاةٍ مثلك، ولا عليك من (بلقيس) فهذه طبيعتها؛ هي لا تزال تحمل في عروقها دماء بلادها التي جاءت منها منذ زمن.

استقامت بظهرها و مسحت بكفيها بعضا من دموعها :

- لا بأس، لتعذرني أستاذ (آدم)! أعتقد حان وقت رحيلى.

- بالتأكيد أنت لا تتوقعين منى أن أسمح بذلك، وإلا فأنت لم تسمعى شيئا مما قلت. اسمعيني لآخر مرة! لأن الواضح أنك فتاة عنيدة إلى جانب كونك قوية ولا تستسلمين. أفهم تماما ما جاء بك هنا، فدعينا نتفق أنه لا يمكنك أن تخرجى الآن وتواجهي بلادا غريبة؛ أنت بحاجة لتعريفها، لتعرفى ماذا ستفعلين فيها بالضبط، على الأقل لتعرفى أين ستعيشين؟! وإلى أن يتم ذلك ستبقين هنا وستهتم بك سيدة (بلقيس)، ولا تقلقى منها فأنا سأسوى أمريكما معا، أما عني أنا و أعرف كم أنا ثقيل الظل، فلا أبقى كثيرا فى المنزل، و أعدك حين أبقى فأنا فقط فى هذا المكتب و لا أخرج منه قط. اتفقنا؟!!

- أستاذ (آدم) أنا أقدر نبلك و فائق كرمك و لكن..

- هذه ناحية هادئة يا (كارما). لا أعرف كيف هى البلاد

التي جئت منها، و لكن هنا لا أحد يبالي بالآخر. ستكونين بأمان حتى تنتظم جميع أمورك، إلا إن كنت تخشينني وأنا فى عمر والدك!

— حسنا! حضرتك لست فى عمر والدى و لا تبدو كوالد على الإطلاق لكن لا بأس. (قالتها مازحة بابتسامة خافتة على شفثيها الممتلئتين و قد بدأت دموعها تجف على مقلتيها.)
 “.. لكنى متأكدة أنهم على الأقل يباليون بأمرك أستاذ. لا يمكننى أن أتسبب لك بالمشاكل.”

قال مستكملا لهجته الرزينة المرححة التي قد بدأ ليخفف عنها:

— لا أعرف لم تصرين على التفكير بطريقة سيئة؟! فقط تأكدى لن يكون هناك مشاكل، و إلا قد جلبت (بلقيس) لي المشاكل منذ زمن!

ردت بضحكة بريئة طوت فيها شعورا عميقا بالألم؛ ظل معها حتى صعدت الغرفة التي أصبحت غرفتها -على الأقل- حتى حين. شعور أطبق على صدرها دفعها لتستكمل سيل بكائها على وسادتها الناعمة رغم نجاح خطتها؛ نبهها أن تلك الدموع التي لم تجف عن ثيابها بعد لم تكن ضمن خطة، لكن كانت بقايا ليلة مشؤومة لم تنسها؛ قدمت فيها

قربانا عظيما للخروج من مقبرتها الكبرى.. قربانا من جسدها و ضميرها معا فى سبيل روحها و فلسفتها فى الحياة.. ليلة تأمل أن تتطير بقايا ذكراها مع نسيم فوزها العظيم.. فوز فتح جرحا فى صدرها، و بابا فى عقلها لم تتبين ما وراءه.

انعكس ضوءٌ ساطع من الشمس التى استقرت أمام نافذتها كأم تحرس و تواسى صغيرتها الباكية. نهضت و اقتربت نحوه أكثر فأكثر، حتى انعكس تماما على صفحة وجنتها اليسرى. أدارت وجهها بهدوء فى كل اتجاه ليلاسه ذلك الدفء الذى جفف براعم دموعها، و الضوء الذى ملأ صدرها انشراحا. رفعت يدها و صنعت بأصابعها بعضا من الظل لعينيها اللتين لم تتحملا نور النجم المبتسم لها فوق جنةٍ كاملة. سحبت حقيبة يدها من جوار السرير قبل أن تفتح الباب و تطوى السلالم ركضا، كطفلٍ نحو أمه القادمة من بعيد.

— إلى أين تذهبين؟!

— سأشتري بعض الأغراض من المدينة.

— و هل تستطيعين الذهاب وحدك؟!

— نعم سيدة (بلييس)؛ مررت هناك بالأمس. سأستقل حافلة؛

لا تقلقى!

- أَلن تتناولى الفطور؟! (قالت بصوتٍ عالٍ لتسمعَ التى ركضت نحو الخارج فى عجلةٍ و تلهف.)
- شكرا! سبق و قدمت لى الكثير. (ردت بصوتٍ مماثل فى الإرتفاع و استدارت على عجلتها الطفولية.)

”عرفت ذلك لحظة رأيتها؛ تلك الفتاة منقسمة تماما!“

راحت تجول بين المروج التى رأتها من أعلى. ذاتها التى هرولت بينها قبل ليلةٍ و كان يغطيها الظلام، و لكن قد حل مكان الظلام نور، و مكان البرودةِ دفء و مكان رعشة الخوف قشعرةٌ أملٍ و حياةٍ و بسمه طفولية.

الفصل السادس

فتحت عينيها نظرةً نصف ناعسة يملؤها الفزع و الصدمة عبر حجرة ضيقة من الطوب الأحمر. لا هواء يدخلها ولا نور ولا دفاً؛ فقط خيوط دقيقة من الضوء انسلت عبر فراغات ألواح الخشب التي ثبتها أحدهم بعشوائية - ليسد المدخل-. نهضت عن الأرض الخشنة و أدخلت أصابعها عبر الفراغات، وبقوة ناعمة من كفها سحبت إحدى الألواح نحو صدرها بغية نزعها؛ حاولت ثانيةً بكفيها دون فلاح، ثم بكلتي يديها -و بكل ما بداخلها من قوة-، ثبتت قدمها أسفل الباب البالي و شدته حتى انتزعَ بين ذراعيها. راحت تنزع اللوح تلو الآخر في إصرارٍ و نفاذ صبر. كلما أزيل لوحٌ ظهر لها الضوء وضّاحاً، حتى ظهر قرص الشمس مقابلها كأنهما على موعدٍ. أرخت أهدابها و تنشقت النسيم الرطب داخل رثتيها العطشيين، لكن ما لبثت و نفضتها فور انتباهها للمشهد أمامها... الغرفة فوق قمة جبلٍ من الصخور الحادة، في منتصف البحر.

اتسعت حدقتها منفتحتين دون سابق إنذار على سقف غرفتها الرائعة. زفرت ارتياحا و هى تمرر يديها عبر جذور شعرها: "الخامسة صباحا!". طلعت نحو نافذتها لتشبع من هوائها الآمن. التفتت بنصف وجهها وابتسمت للإسطوانات فوق المدفأة فى مؤخرة الغرفة؛ تتذكر كيف نامت على أنغامهن و لم تشعر! تحركت خطوة باتجاههن لتستمع إلى واحدة لم يسبق أن سمعتها قبل يومها الذى مر -حينها أدركت أنها و قطعاً أخرى من موسيقاه لم تصل بلادها-، لكن ما كادت خطواتها تكتمل إذ سمعت صوتاً عبر النافذة. تسمرت مكانها وبكل ما لديها من حواسٍ أنصتت؛ كان آتياً من خلف النافذة السفلية.. مكتب (آدم أبيض) أو معبده الفنى - كما تسميه-.

صوت أنغام تتدفق بسلاسة كماء النهر. أنغام هى أجمل ما يمكن للأذن أن تسمع؛ جمالها يفوق قدرة النفس البشرية على الخلق و الحواس على الاحتمال. خلعت ثوب نومها البرئ و التقطت ثوبا بلون السكر؛ نُقِشَتْ نهايته عند الركبتين باخضرار الزرع و ورودٍ برتقالية و شُدَّ على خصرها بحزام ذهبى رفيع. دون النظر فى مرآة، فتحت الباب و هبطت السلالم فى خفة شديدة كما فراشةٍ منتشية برحيق زهرة نادرة. وقفت أمام الباب المزدوج بعينين مغمضتين و تعبيراتٍ من الانفعال و النشوة

الروحانية، بقشعريرة على جلدتها ورنّة دافئة في صدرها. تلك لحظة كانت روحها أخف من ريشة سقطت من السماء، تماما كحال (آدم) و بنيه. لحظاتٍ مرت؟ دقائق أم ساعات؟ (كارما) أبدا لم تعرف؛ كل ما عرفته أن — ومنذ تلك اللحظة — كل مفاهيمها عن الزمن قد تغيرت.

— كارما! كارما! ... كارما!!!!!!!

— نعم سيّدة (بلقيس)! ماذا هناك؟!

انفتح باب المكتب:

— صباح الخير أيتها السيدتان! لم تصرخين يا (بلقيس)؟!

— لم أكن أصرخ؛ فقط أحاول إفاقتها من غفوة عميقة!

— لم تغفنين في الصالة يا (كارما)؟! هل غرفتك غير مريحة؟

(تحرك نحو طاولة أنيقة في إحدى أرجاء الصالة الفسيحة و تبعته.)

— لا! سيّدة (بلقيس) تمزح؛ لم أكن نائمة. فقط كنت أستمع

إلى عزفك سيد (آدم).

— نعم، في أحلام اليقظة!

ضحك و وجهه نحو الطبق الذى وضعتَه أمامه (بلقيس)
 -بينما قالت تعليقها السابق-، و على ملامحه دهشة من حال
 الفتاة الذاهلة كأن أحدا ضرب رأسها بمطرقة.

- عفوا! (قالت (كارما) و هى تحرك ناظريها بينهما فى عدم
 فهم.)

- كلى جيدا يا فتاة! (وضعت (بلقيس) أمامها طبقا).

- ها؟! نعم! شكرا.. سيدتى!

نظرت (بلقيس) إلى (آدم) الذى بادلها النظرات حافظا ضحكه
 الوقور هادئا. قال موجهها حديثه لـ(كارما) بعد ذهاب (بلقيس):

- هل أنت -حقا- بخير؟!

- تلك المعزوفة كانت رائعة!

- هل سمعتها؟

- استيقظت عند الخامسة؛ سمعتها فنزلت على الفور.

- الخامسة! هذا يعنى أن عزفى أيقظك عندما بدأ...!

- لا! أيقظنى شئٍ آخر.

- و لَمَ لَمَ تدخلى عقب انتهائها لتخبرينى رأيك؟

- وددت ذلك، لكن جاءت سيده (بلقيس) و فعلت ما فعلت
فخرجت حضرتك. (صاحبت كلماتها بضحكة صافية.)
- نعم.. ولكنى أنهيت عزفا منذ ما يزيد عن ساعة!
- و لكنى كنت أسمعها حتى نادتنى سيده (بلقيس)..!
- تقصدين حتى انقضت عليك (بلقيس)!
- لا يهم! .. حقا أستاذ (آدم) كنت أسمعها حتى دقائق!
- .. أهذا يعنى أنها أعجبتك؟
- أعجبتنى! هى أقصى ما يمكن للأذن البشرية أن تتحمل
من نشوة سمعية.
- طالت بينهما نظرة و كأن كلا منهما يحاول أن يغوص فى
أعماق الذى أمامه. هى تتأمل ذلك الذى تؤمن كثيرا أنه ليس
بشرياً، و هو يحاول أن يجلى دهشةً و فضولاً بشأن الفتاة
الغريبة حالا و نعتا.
- ماذا درستِ (كارما)؟
- الأدب و القصة.
- مثيراً! .. كيف قضيتِ يومك الأول؟ أخبرينى!

— تنزهت صباحا فى الناحية، ثم أخذت جولة فى المدينة حتى بعد الظهر. بعد الغداء، استمعت إلى موسيقاك حتى غلبنى النوم.

— و ما رأيك؟

— لا يمكن للحروف أن تصف روعة حرفٍ واحدٍ من موسيقاك أستاذ (آدم) و بالتأكيد أنت تعرف ذلك.

— شكرا! لكنى لم أقصد موسيقاى. قصدت الناحية.. وكذلك المدينة؛ هل أعجباك؟ هل تعجبك بلادنا بشكل عام؟

— أنظر فى كل ما فيها فأرى كمالا يجعلها منزلا للإله.

رفع حاجبيه -و هو يلتقط قطعة من الخبز فوق طبقه- تعجبا من تلك الصغيرة التى تؤكد مع كل قول و فعل و انفعال أنها غريبة فعلا. قالت لتقطع صمت لحظاتٍ كادت توترها:

— أتعرف أستاذ (آدم)؟! لقد استغلّيت وجودى فى المدينة و اطلعت على إعلاناتٍ كثيرة، و.. كذا اشتريت جرائد كثيرة، و سأبدأ فى البحث عن وظيفة تناسبنى. انا متحمسة جدا و أشعر أن كل شئ سيكون رائعا.

— جيد جدا! يبدو لى أنك تستغلين وقتك جيدا هنا.

— جئت هنا لأحظى بحياة، فلم يسبق و حظيت بوحدة.

خرج عقب الفطور و خرجت فى نزهتها الصباحية تسير فى هذه الأرض الطيبة، عندما عنت لها صورة من الماضى.. لفتاة تمشى فى أرضٍ أكلها القحط و الزلط؛ من فوقها سماءٌ باهتة و قرصٌ شاحبٌ يغطيه الغيم و الضباب؛ فتياتٌ و نساء و ضمن أجمل ما فيهن فى جيوبهن، و رجالٌ فى عيونهم نظرات الشيطان. انعقد حاجباها و غصَّ حلقها لمجرد عودة تلك الصورة و ذلك الشعور. نظرت حولها فى ارتياح و امتنان لما تراءى أمامها القرص اللامع و السماء اللجينية.

قضت وقت الظهيرة بأكمله تجرى اتصالات مع الأرقام فى الصحف؛ كانت معظمها وظائف كتابية و سكرتارية. أعادت عدة التليفون مكانها بجوار السرير، و ضغطت بيديها فوق عظم كتفيها و هى تحرك رقبتها فى كل اتجاه: ”هذا يكفى لليوم.“

نزلت الطابق السفلى و ذهبت إلى المطبخ:

— مرحبا!

— مرحبا! هل شعرت بالجوع أخيرا؟!

- لا ، شكرا! سيدة (بلقيس) أود أن أسألك شيئا.
- تفضلي.
- معروف أن الفنانين يختلفون معظم أوقاتهم بأنفسهم فى بيوتهم ، يطلبون الوحي و الإلهام لفنهم ، لكن .. أستاذ (آدم) يقضى تقريبا كل وقته بالخارج ، أعنى أن هذا ما لاحظته خلال يومي تواجدى ؛ بالطبع قصدى هو .. أخشى أن لهذا علاقة بوجودى.
- أستاذ (آدم) يعمل كثيرا فى المنزل. لكنه مشغول منذ أيام بحفله الضخم الليلة فى أوبرا المدينة ، و لا أعلم كيف سيكون الحال الأيام القادمة؟
- هل أنتِ جديّة؟ (آدم أبيض) سيحيى اليوم حفلا فى الأوبرا! و أنا هنا! و ليس لى خبر! لمّ تعاملوننى بهذه الطريقة؟! (خرجت مسرعة و تبعتها (بلقيس) بعينين متسعيتين من الاستغراب).
- وصلت حتى أول السلالم ثم استدارت و عادت راكضة إلى المطبخ:
- متى الحفل سيدة (بلقيس)؟
- الليلة يا فتاة!

— أقصد أى ساعة؟! —

— الثامنة.

خرجت تغطى جسدها بروب الاستحمام و شعرها المبلل متفرق عن بعضه فى سداثل حرة، ولأول مرة.. تقف أمام الخزانة تتساءل ماذا ترتدى: ”هل ألبس الأسود القصير؟ ، أو ذلك الأزرق الطويل؟ ، أو ربما تلك الكنزة مع هذه التنورة؟“ أول مرة تقف أمام المرآة تتفرس تفاصيل وجهها الجميل باهتمام لتتزين، و لا تشعر أن أنوثتها إثم و جمالها خطيئة يتوجب عليها اخفاؤهما أبد الدهر؛ لأول مرة.. هى أنثى دون خوف. كانت تتنقل بين قطع الغرفة -من الخزانة إلى المرآة- فى سعادةٍ سخية، وسطَ خلفية صوتية من موسيقى (آدم أبيض) تنبعث عن اسطوانة فضية اللون.

الفصل السابع

نزلت من سيارة الأجرة أمام قبة المبنى العريق. شعرت أمام ضخامته بصغر حجمها على الأرض، و أمام فخامته بالخشوع وهيبة الفن. هو بالنسبة إليها مكان لا يقل قداسة عن دور العبادة.

و أمام إحدى نوافذ التذاكر:

— أريد تذكرة لحفل (آدم أبيض) من فضلك.

— عفوا يا أنسة! قد نفذت التذاكر منذ أيام.

تراجعت بضع خطوات فى شئ من خيبة التوقع؛ تحكم يديها على طرفى ياقة معطفها الأسود و شعرها يتطاير فى هواء أول الليل المنعش. أشارت ساعتها إلى السادسة. "لابد و هناك طريقة، ليست (كارما) من تعترض طريقها تذكرة!" علمت من أحد أفراد الأمن المكان الخاص ببروفات الحفل. وعند الباب المغلق، وقف فردا حراسة؛ شعرت بإمكانية منطقية كبيرة ألا يسمح لها بالدخول، لكن كعادتها اقتربت فى ثقة:

— هنا بروفات (آدم أبيض). صحيح؟

- نعم.
- هل يمكننى مقابلته؟
- هل حضرتك من أفراد الفرقة أو أحد القائمين على الحفل؟
- أنا أعرف أستاذ (آدم) شخصيا، وفى الحقيقة هناك ضرورة لأقابه.
- ”اعذرينا آنسة! و لكن هذا ممنوع تماما أثناء البروفة السابقة للحفل المباشر.
- و متى تنتهى البروفة؟
- بعد ساعة على الأكثر.
- شكرا. ...

”هلا أخبرتنى عن مكان دورة المياه من فضلك!“

خلعت معطفها و استدارت أمام المرآة؛ تنظر لنفسها فى الثوب الأسود القصير الذى تمسك بتقاسيم جسدها فى غرام شديد، و لف ذراعيها بقماشه الرقيق حتى كوعيهما. وقفت تتأمل رضا فى عينيها لم تره قط. صحيح هى لم تصل إلا منذ يومين فقط، و أن نقودها التى حضرت بها من بلادها

لم يُعد يتبقى منها الكثير، و لم تحصل على وظيفةٍ بعد..
 ”وظيفة!“ ابتسمت لنفسها فى المرآة ببراءةٍ مغرية لتذكرها
 موعدا منسياً كان فى الخامسة مع أحد أصحاب الإعلانات.
 صحيح هى لم تُغمس كلياً فى بركات (آدم أبيض)، و لم تتشبع
 من فن و روحانية هذه البلاد بعد، لكنها تقف هناك أنثى
 .. حية .. حرة .. آمنة، و هى أشياء لم تشعرها من قبل.

أخذت معطفها و خرجت سريعاً كى لا يفوتها الحفل كما ذاك
 الموعد. حملت معطفها بين يديها و وقفت تنتظر خروجه؛ تتأمل
 الباحة الواسعة أمامها، نافورة مياه تحرسها تماثيل الآلهة، هؤلاء
 الخلق الأنيقين، و من فوقها سماءً عامرة بالنجوم و قمرٌ ناصع:

”آه يا أرضي الجديدة! آه يا ميلادى! حيث
 لن أبرح أبداً مكانى، حيث لن أموت إذ أموت..
 فحياة الروح لا تفنى بالموت. يا جمال العمر و ما بعد
 العمر فيك يا أرض النور! هنا... حيثما تشرق الشمس.“

تحركت خطواتٍ قليلة إلى الأمام بعيداً عن العمود الخزفي
 الذى تستند عليه لتراقب شيئاً أثار انتباهها، لمحته عبر باب
 فى مبنى مقابل ينفتح و ينغلق بدخول الرواد و خروجهم منه.
 عبرت إليه و دخلت مع الداخلين.

تنقلت بعينيها فى انسجام و تأثر من فرط روح الفن والجمال فى اللوحات على الجدران، و التماثيل فى الوسط و الأركان. فى الطابق العلوى، وقفت أمام لوحة و توقف معها الزمن و المكان و كل ما يدور حولها. لوحة لامرأتين قد تجمع الخلق حوليهما كالوحوش؛ إحداهما ناضجة تحتضن شابة يافعة. دقت فى نظرات المرأتين، فيما بعيني الأم -كما صورتها- من صدمة و زعر و عيني الشابة من خوفٍ و نقم، فى يديهما المفتحتين حول بعضيهما بقوة. ظلت مقلتها متعلقتين بتلك الوجوه فى اللوحة طويلا، حتى و هى تتوجه نحو غيرها، لحظة لمحت شيئا آخر على الحائط أثار لبها.. ساعة تشير إلى ما بعد السابعة. "الحفل!" طلعت تركض من المعرض كسندريلا الناسية وعداً الساهية عن موعدٍ.

— هل خرج أستاذ (آدم)؟

— منذ أكثر من عشر دقائق.

— و أين ذهب؟

— بالطبع يستعد للحفل و لكن ليس لدينا علم أين يكون الآن.

راحت تلف أرجاء الأوبرا بحثا عن أثرٍ له. جلست على

أحد المقاعد و قد بدا التعب بوضوح على وجهها الفتى؛ على

كل حال ليست المرة الأولى منذ قدومها يخطف الفن أنفاسها وروحها و شعورها بالوقت. العد التنازلي للحفل قد بدأ، وهؤلاء المارون أمامها يتزايدون؛ تسمعهم يتهايمسون؛ تعرف أنهم الحاضرون. قامت و سارت وسط الجموع و فى نيتها أن تبذل آخر ما بقى من محاولة. وقفت عن بعد لدى رؤيتها البوابة الحديدية البيضاء و أطرافها كثيرة تمر منها إلى ساحة واسعة؛ زحرت بمقاعد قرمزية من القماش الدافئ تحت غطاء مباشر من سماء بذات اللون. فى صدر الساحة مسرح يقدم نفسه فى حضور لافت؛ تغليه نجوم إيقاعية و وترية. فى مقدمتهم بيانو أسود لامع، و مقعد أنيق منفرد بنفسه هو بالطبع له، و قليل آخر من الآلات كالكممان و الناي. نظرت بشغف شديد فى عينيها و شعور غريب فى صدرها نحو كل ذلك الذى أمامها والذى هى جزء منه، و إن كانت لا تحمل تذكرة العبور. ”يا إلهى! هل أستطيع تحمل كل هذا الجمال؟!“

هى تسكن منزله منذ يومين. هو لا يعلم ما يمثله لها من معانٍ فى هذا الوجود. تغادر روحها أضلاعها و تحلق إذ تسمع موسيقاه، لكنها المرة الأولى تشعر بذلك الشعاع من العاطفة و تلك اللذعة من الانفعال. كأنها أمام هيبة المسرح و فى خشوع مناخ الأوبرا و وسط حديث الحاضرين، استفاقت أن كل ما يحدث

معها ليس حلما، بل أنها تسكن بيت ذلك الذى جاءوا من أجله جميعا، و جاءت هى من مكانٍ أبعد منهم أجمعين. شعرت برعشةٍ من البرد و مشاعرٍ أخرى يصعب تعريفها تسرى فى جسدها و روحها معا. تراجعت إلى الوراء و عيناها معلقتان بذلك الكرسي الفارغ أمام البيانو. جلست على مسافةٍ ليست ببعيدة عن البوابة التى سُدَّتْ بالكامل و سُدَّتْ الرؤية عبرها مع المرور، و عندما علت الموسيقى التى تعرفها، بل تميزها جيدا بين كل حروف النغم و أصابع البيانو و أوتار الآلات، علت معها الرجفة فى جسدها و الدقات فى قلبها، و صاحبتهما دمعة من عينيها.. دمعة لا تشبه واحدة مما ذرفتها أبدا.

انتظرت طويلا قبل أن يصل و يجدها تستند إلى سيارته:

— (كارما)!

استقامت فى وقفتهما، ضاغطة أصابعها على المعطف بين يديها.

هل حضرت الحفل؟!

— يمكنك قول ذلك.

فتح لها باب السيارة ثم صعد و انطلقا.

- هل استمتعت؟
- كثيرا، أكثر مما كنت سأستمتع بموعد العمل الذى نسيته على أى حال.
- هل كان لديك موعد عمل؟
- اليوم؛ لكنى فقدته لحضور الحفل.
- لا عليك! من الجيد أنك ذكرتني؛ أعرف صديقا لديه دار نشر و يريد من يشغل وظيفة فى المراجعة و التدقيق. ظننت ذلك - ربما - مناسبا لك و دراستك. ما رأيك؟
- المهم أن أكون أنا مناسبة لذلك.
- أنا متأكد.
- خلا طريقيهما من الحديث عدا تلك الكلمات التى كان ينطق بها بين الحين و الحين: ”الطريق ليس مزدحما الليلة“، ”لقد اقتربنا“ و ”ها قد وصلنا“، و على الأغلب كان يحدث نفسه بها، كما لم تنطق (كارما).
- هل أطلب منك طلبا؟
- بالطبع!

— سأذهب الآن فى سهرة عمل مع مجموعة من الأصدقاء الفنانين. هل إن طلبت منك أن تتناولى عشاءك ثم ترتاحى بعدها -لأنك تبدين مرهقة- ستفعلين؟ أم على ان أدخل بنفسى و أطلب من (بلقيس) أن تشد أذنيك و أنا أعرف أنها تود ذلك كثيرا؟ (ضحكا معا بهدوء)، ثم إستأنف: أنا جاد هى تقول أن لديك عداوة مع الطعام. هل تعديننى بما طلبت؟

— أعدك.

— جيد! تصيحين على خير.

بعد ساعاتٍ قليلة كانت فى ذات الغرفة المشؤومة؛ تحطم الألواح جميعها لتنتهى فوق قمة الجبل المرعب. قامت وأنفاسها المكتومة ناظرة إلى الساعة بجوارها ”الخامسة!“ اقتربت من النافذة على أمل أن تسمع صوتا يأتيها عن أسفل، لكن ما من صوتٍ هناك. التفت فى روب رماديّ طويل من القماش السميك وهبطت السلم فى هدوء. فى الطابق السفلي، لا ظل ولا صوت من خلف الباب العريض المزدوج، فقط خيوط بيضاء من آخر الفجر تسللت إلى الأرجاء عبر النوافذ الزجاجية الكبيرة. جلست تفرك جبهتها و أول شعرها المفرد على ظهرها فى غجربة

ناعمة. ثمة شئٌ فى الداخل يكاد يعيث بكل الأشياء، فى عمق الأعماق، فى أصل الأصول؛ باب فى عقلها انفتح ذات مرة على وسادة تبللت بأمطار العيون؛ يقابله تيارٌ غربى من الدقات و الرجفات؛ تسترهما سماءٌ غائمة من الكلمات العابثة، التى نزين بها إراداتنا و نمحو بها خوفنا، لنخفى حقائق قد تدمرنا، أو فى أقل الخسائر.. تغيرنا، تغربنا عن نفوسنا التى نعرف. انتفضت فى مكانها لدى انفتاح الباب الضخم أمامها:

— (كارما)! أنت تفاجئيني كثيرا اليوم... كيف حالك الآن؟
— بخير!

مرت لحظات قليلة من الصمت الحافل؛ كان لكل منهما ما يقوله للآخر. قطعتهما ببساطة:

— أستأذنك! سأعود لغرفتي.

— ... فى حال لن تعودى للنوم أو لست مشغولة بشئ، هل يمكننا تناول الفطور ثم التحدث قليلا؟

— بالتأكيد! لكن أعتقد أن حضرتك أيضا بحاجة للراحة.

— لا أعتقد ذلك. لم يسمح لى صديقى بالقيادة دون نوم، لذا نمت عنده.

— إذن سأبدل ملابسى و أنزل حالا.

— و أنا أيضا.

بعد الإفطار كانا جالسين على كرسيين متقاربين فى غرفة مكتبه؛ أمامهما كوبان من القهوة الإيطالية. بدأ الحديث بأسلوبه الأنيق الواعى:

— (كارما).. أنت فتاة قوية جدا. أتعلمين هذا؟

— حقا! كيف؟

— جئت من بلاد بعيدة تاركة كل شئ خلفك لتبدأى من جديد.

— أو أننى غبية جدا لآتى إلى بلاد لا أعرف فيها أحدا، فينتهى بى الأمر دخيلة فى بيت أحدهم.

سكت و نظر بمقلتيه الذهبيتين الهادئتين إلى الأرض ثم قال:

— لست غبية (كارما)، و أنا على يقين أنك لم تأتى هنا على سبيل الصدفة.

اختفى اللون عن وجهها و أطرافها. (آدم) يعلم كل شئ!

لقد شكت بذلك لحظات نقضت كثيرا من راحتها منذ مجيئها.

نعم خطتها منفذة بإتقان و واقعية تمكنها فى أية لحظة من

إثبات إدعاءاتها، و لكن ماذا عن رجل فى مثل عمره تطارده الفتيات كما أخبرتھا (بلقيس)؟ أمن المعقول ألا يشك بأمرها؟! ماتت الحروف على شفقتها لحظات و هى تتطلع أمامها دون النظر تجاهه.

”حتى إن كنت لا تدركين ذلك، لكنك قصدت فى داخلك بلادا غريبة لا تعرفين فيها أحدا و لا أحد يعرفك، حيث يمكنك أن تنسى فيها ذاتك القديمة و كل ما حدث معها دون مجالٍ لذكرى أو نظرةٍ للوراء، و تعيدین رسم حياتك على صفحةٍ بيضاء.“

كادت تصرخ ارتياحا فور فهمها ما يقصد. هو يحدثها على أساس من تلك المأساة المفتعلة التى حدثته عنها يومها الأول بدموع حقيقية على عكس كذبتها. على أى حال لم يكن مخطئا؛ هى لم تأت على سبيل الصدفة، بل تعمدت ترك كل شئ وراءها، كل شئ... كى لا تترك مجالا للعودة إلى الوراء، إلى ذلك الجحيم الذى كانت تحيا به.

”أعلم أن ما مررت به ليس هينا، لذا ثقى بى إذ أخبرك أنك قوية جدا لإصرارك أن تخرجى من أزمته، و قرارك أن تكملى حياتك على هذا الثبات. من الطبيعى

فى البداية أن تختبرى المزاجية و الإضطراب، بل و الندم أحيانا؛ أنتِ جديدة على المكان و المناخ؛ ليس لديك أصدقاء و لا تعرفين أحدا، ولكن أنا متأكد لن تلبث أيام أخر أن تمر حتى يكون كل شئ على ما يرام، تماما كما تأملين.“

— ليس صحيحا.

— عفوا!

— لست غريبة على المناخ أو المكان؛ أصلا أشعر أنى أنتمى إلى هنا من قبل حتى أن أتى إلى الأرض. أستاذ (آدم).. أريدك أن تساعدنى. (تحدثت بصدق و ضعف بالغين).

— ألا تعين أن هذا ما أحاول فعله؟!

— لقد عشت عشرين عاما فى بلادى أمقت كل ما هو محيط، و نظرات الناس الفاسدة للحياة، كما هي لكل شئ. رغم ذلك علمت ما أريد. علمت فى داخلى أن الحياة بئر عميق أود أن أنهل منه حتى النهاية. شعرت أن مائة من الحياة فى هذا الكون لن تكفينى لتروى ظمأى و ترضي فضولى تجاهه، و أن تلك الحياة هي لغز مثير، لم أفهم أبدا كيف للبعض أن يسأمه، و سرُّ عظيم فكيف ينحطون به! لكن الآن .. بت أخشى أنى أضعف و أصغر من أن

أتحملة. أنا بحاجة لتعلمنى كيف أحييا وسط هذا الكمال،
و أن أتحمّل كل هذا القدر من الجمال. أشعر أحيانا أن
روحى تكاد تحطم رثتىّ و أن جسدى لم يُعد يتسع لها.
كان ينصت إليها بروحه و كامل حواسه، تماما كما تنصت
هى إلى موسيقاه.

— لمَ لا تطلقين عنانك ببساطة؟! فقط انتزعى روحك من بين
أشلاء الذكرى و اغرسها حيث تريد. و لتعلمى أن ذلك
الذى ترينه من جمال و كمال ربما غيرك لا يراه! أو أنه يراه
و لكن على غير صورة! لكن هذا لن يعنى أنه غير موجود؛
هو موجود لأنك ترينه و تشعرينه، لذا لا يمكنك بعدها أن
تستسلمى لجزع، أو تنتظرى أحدا كى يريك ما تريد،
فوحده القادرة على رؤيته بالصورة المثالية التى ترغبين.

— لكنى كلما تحررت من قيد حتى ظننت أنى أملك روحى
بين ثنايا كفى، وجدت نفسى أسيرة لقييد جديد. هناك
حاجز ما بينى و بين هذا الجمال، حاجز بينى و بين
ضوء الشمس.. بينى و بين روحى. أخشى أنى أصبحت
أحيانا ألتمس الأعذار لهؤلاء كيف يعيشون كل هذه المادة،
و هذا الجفاف الفكرى و الجفاء الروحى و الجحود بها؛

أفكر كم هو أسهل لهم أن يُؤسروا فى جسدهم البالى،
أدنى للوحد الذى خُلِقوا منه.

— لم كل هذه العجلة و نفاذ الصبر(كارما)؟ اصبرى قليلا! ربما
لم تري كفاية.

— رأيت من الجمال ما يفوق قدرتى البشرية!

— لم أقصد الجمال.

ظلت تستمع صمت حديثه لحظات بترقب شديد للحرف
التالى من كلماته:

”إن حُبِسَتْ فى الظلمة لمدة من الزمن، ثم فجأة انفتحت
نافذة صغيرة و دخل منها شعاع قوي، ماذا تفعلين؟“

— سأغمض عينيّ بشدة و أحميها بيدي من الشعاع.

— صحيح! و ستعتقدين أن عينيك ليستا على قدرة لتحمل
النور، و لكن ماذا بعد دقائق؟ و ماذا بعد ساعة كاملة؟
سيمر الوقت حتى ليتحمل ناظرك الشعاع كاملا؛ بعدها
سيدرك أن ذلك النور ليس سوى خيط رفيع من ضوء
الشمس، بالكاد أصبح كافيًا له.

أشرفت عيناها حتى انفرجت شفتاه كاشفة أسنانه البيضاء
المصطفة بدقة، لما لاحظ من أثر لكلماته عليها.

”أمل أن ليس لديك ما يشغلك الليلة يا (كارما)!“

— ”لم؟ ماذا سنفعل؟!“

— سنفتح لكِ النافذة أكثر.

قبل الظهريرة أوصلها دار النشر لتبدأ عملها. تحدثا طوال
الطريق عن الطبيعة و الشوارع و المنشآت، عن حضارة البلاد
وثقافتها. كانت شغوفة كثيرة الأسئلة عن كل ما يمران به و
كل ما يعطيها من تفاصيل.

— هذا هو الدار. انطلقى و لترفعى رأسى يا فتاة!

— لا تقلق! مع السلامة.

التفتت إليه قبل أن تترجل: ”ألن تخبرنى أين سنذهب الليلة؟“

— لا.

ضحكت و أردفت متسائلة:

— على الأقل لأعرف ما على ارتداؤه، أو تريد أن أسبب لك الإحراج؟

— ليس لدى مشكلة في هذا.

بعد انتهائها خرجت تحمل بيديها كتبا و أوراقا للعمل، بروحها كثيرا من الغبطة، و بقلبها فائضا من الشغف لكل الأشياء. في طريقها سمعت كلماته في أذنيها بشأن كل ما تمر به؛ ترى تعبيراته يحكى لها التاريخ و التفاصيل، كيف كان و كيف أصبح. لم تعرف كم من المرات كانت قد استرجعت حديثه لدى ترجمها أمام سور الحديقة.

الفصل الثامن

نزلت عن السلالم ترتدى سترة من الجينز الأزرق فوق قطعة سوداء منقوشة بالورد الأحمر الدقيق، أخفت طولها داخل تنورة سوداء حتى ركبتها و أسدلت موجات شعرها -كعادتها- فوق ظهرها.

— لا أعرف أين نحن ذاهبان على وجه التحديد؛ فهل.. هذا مناسب؟

— رائع! هيا بنا!

في الطريق سألها عن مقابلة النهار. حدثته تفصيلا بسعادة واضحة و امتنان عن العمل الذى هو فى عقر شغفها؛ كم سيساعدها على فتح آفاق أمام عقلها و روحها! و هو ما تتوق إليه فى حياتها، و عن ارتياحها تجاه إمكانية عدم التقيد بمكان أو مواعيد للعمل، شرط الالتزام بمواعيد التسليم. بقي هو رافضا إخبارها وجهتهما.

— منزل من هذا؟ (سألته بينما وقف يفتح لها باب السيارة)؛
 فى الوقت ذاته انفتح باب المنزل و ظهر منه رجل و امرأة
 جاء صوتها عاليا: ”لقد وصل (آدم)!“

أمسك (آدم) بيد (كارما) و دخلا. استقبلهما الرجل الذى بدا
 أنه صاحب المنزل و قادهما نحو صالون فخم يجلس به رجلان
 آخران؛ أحدهما شاب و الآخر فى مثل عمر (آدم) تقريبا. عرفها
 (آدم) كإبنة أحد أصدقائه القدامى و بدأ يعرفها بالرجال الثلاثة
 و المرأة، التى بدت فى أضواء الصالون فائقة الجمال و الحيوية
 رغم أنها لا تقل عن الثلاثين؛ ترتدى فستانا فضفاضا متوسط
 الطول، ملونا برسوماتٍ و وجوه غير محددة حتى على أكمامه
 التى تخطت الكوعين، و رفعت شعرها الناعم فى كعكة أنثوية
 غير مرتبة. عرفت (كارما) أنها رسامة تدعى (سارة). الرجلان
 الآخران أحدهما صديق (سارة)، أو قريبها؛ لم تبالي (كارما)
 كثيرا فى تعريف (آدم) به، فى حين سبقته فى تعريفه الشاب
 قائلة: ”(دانى)؛ أستمتع إليه منذ سنوات و أعشق صوته!“

ابتسم الشاب الطويل النحيف ذو اللحية الخفيفة و شكرها،
 بينما قادهما (آدم) للجلوس و جلس جوارها. صاحب المنزل
 صديق مقرب لـ(آدم) كما لكثير من الفنانين. يعمل فى مجالات
 مختلطة من الفن كالإخراج و الإنتاج السينمائى و المسرحى. على

الفور ميزت (كارما) بعضا من أعماله التى انفلتت بها كثيرا، فعبرت له عن ذلك أيضا.

— أين تجلس يا (آدم)؟! (سارة) .. ”لا يمكنك أن تنسى لأنك تصطحب تلك الجميلة الصغيرة!“

نهض فى وقاره مبتسما ثم جلس على البيانو فى أحد الأرجاء. فهمت (كارما) أنهم يبدأون تجمعاتهم الفنية و الأدبية بعزف (آدم أبيض). كانت المرة الأولى تراه بعينيها عازفا. بدا كأنه فى عالم آخر، و كانت كعادتها تستمع إلى الموسيقى بحاسةٍ مجهولةً فى أعماقها، فتوشك قدمها أن ترتفعا عن الأرض، لكن تلك المرة كان عليها البقاء قليلا.. تراقب هذا الحى الذى يعزف بروحه لا بأنامله.. تتأمل الحميمية بين أصابعه و أصابع البيانو، كأنهما خُلقا ليتلامسا، حتى وجدت نفسها تحسدها. انتهى العزف بعد وقتٍ لم تحدده، فوقفت (سارة) و صفقوا جميعا، و هى معهم؛ تبدو لنفسها غريبة، فتلك أول مرة تستمع للموسيقى ولا تكون -بكل ما فيها- معها وحدها.

كان (آدم) قد عاد مكانه بجوارها عندما ارتفعت فجأة موسيقى إيقاعية، و وقفت (سارة) مع ذلك الرجل المجهول -بالنسبة ل(كارما)- يرقصان رقصة مليئة بالشغف و البوهيمية. عندما انتهت

صفقوا ثانية دون (كارما)، و (آدم) الذى كان يراقبها بوعي شديد.

— أنتِ لم تصفقي! (تحدثت (سارة) مبتسمة .)

— عفوا؟!!

— لم تعجبكِ الرقصة.

شعرت ببعض التردد و خاصة مع أسلوب المرأة الأنيق الذى يشبه أسلوب (آدم)، و إن بدا لها أن فنيهما لا يتشابهان البتة. أجابت:

— ليست الفكرة أنها لم تعجبني؛ هى فقط مسألة مدارس فكرية و فنية.

أنصت (آدم) لحديث الجميلتين -الذى بدأ توا- صامتا، على شفتيه ابتسامة لا تكاد تُرى.

— إذن لأى مدرسة تنتمين؟

— الحقيقة أيضا هى أننى لا أعرف على وجه التحديد، لكن بالنسبة لى، فإن كل ما خلع عباءة الروح و لبس لباس الرغبة، ليتدنى لمستوى الحس و مخاطبة الجسد ليس فنا.

— ألا تتفقين معى أن واجب الفن التعبير عن النفس البشرية بكل ما تحمل و أن يشملها بكل ما تمثل؟!!

— هنا يختلط معنى الفن و أنواعه بمعانٍ و ممارساتٍ أخرى. أفهم ما تقصدين أننا البشر روح و جسد، و الفن يجب أن يعبر عن الاثنين، لكنى أرى أن رسالة الفن الأسمى هى التعبير عن الروح الإنسانية التى تميز الكائن البشرى. نعم نحن حيوانات! نمارس جميع مظاهر الحياة التى تمارسها كل المخلوقات الأخرى، و تلك الممارسات هى التى تمنحنا صفة الحيوانية، و هى كفيلة بالتعبير عنها، لكننا الجنس الوحيد فوق هذه الأرض الذى يخلق الفنون و يمارسها؛ الحيوانات لديها حس الشهوة و الرغبة، و ربما لديها حس الفن أيضا، لكن لا يمكنهم تأليف الموسيقى أو الرسم أو كتابة الأشعار؛ نحن فقط الأقدرون، لذا يجب أن نستخدم ما يميزنا فى التعبير عما يميزنا، و هى الروح الإنسانية الخالصة من مظاهر الحس.

— إنها المثالية غير الواقعية، كما أنى لا أرى خلطا مفتعلا بين الفن و غيره من المعانى و الممارسات، و لكنى أرى الفن فى كل شئ.

— و أنا أقدم الفن لدرجة تجعلنى أرى من الأولى له أن يرتقى بالإنسان لما يميزه، لا أن ينحط به لما يشاركه مع جميع الحيوانات.

- أنا متفق مع (كارما) تماما. (توجهت الأنظار نحو الصوت الهادئ الذى ارتفع ، وكان لـ(دانى).) تحولت (سارة) نحو (آدم):
- ما رأيك يا (آدم)؟
- أرى أن أيا كان ما يعبر عنه الفن المهم هو كيف يعبر.
- وكيف يجب أن يعبر الفن؟ (سألته (كارما).)
- هذا أخطأ ما قد يُسأل بشأن الفن، و الأخطأ منه إجابته و إلا لم يعد فنا.
- هل تعلمون؟ كل ما تتحدثون فيه يكمن فى سر واحد، هو النسبية، و إن حدثتمونى الآن عن النسبية و علاقاتها بالفن و النفس البشرية سوف أخرجكم جميعا من بيتى. هيا نتناول العشاء!

فى عودتهما التفت إليها:

- ما رأيك؟
- كان ذلك رائعا! طالما تمنيت شيئا كهذا.

— و ماذا بشأن الكمال و الجمال و عدم قدرتك على الاحتمال؟
ماذا رأيت اليوم؟

— تقصد اختلافى و (سارة)؟! ربما أتفق معها فى شئ؛ هو
أن الفن فى كل شئ، و لقد لمست الفن فى اختلافنا الليلة.
استمتعت بالمناقشات على كل حال.

— و جميعهم استمتعوا بوجودك أيضا!

— أخبرتك أنى أنتمى إلى هنا.

— و أخبرتك أنك ستعتادين النور.

— لست متأكدة بشأن ذلك. (كانت فى نفسها تفكر أنه ما
أن تعود لذلك المنزل، حتى يعود كل شئ إلى الجمال المطلق
الذى يكاد يطيح بعقلها، و لا يُبقي منها سوى روح هائمة
فى سماء (آدم أبيض). ليتهأ تخبره أنه الكمال الذى جاءت
على شرفه.

— ليس هذا ما بدا فى كلماتك اليوم على أى حال؛ بدوت
الأكثر إشعاعا.

— ليس أكثر من معزوفتك.

ابتسم ثم قال:

- إلى أى حد تقدسين الفن (كارما)؟
- ذلك الحد الذى يجعلنى أقدم له أغلى القرابين.
- صمتت لحظات و نظرت نحو الطريق، ثم توجهت إليه:
- ما رأيك بصراحة أستاذ (آدم)؟
- أطلق ضحكة و أجاب:
- لا زلتِ تفكرين بنفس النقطة! لقد قلت رأى بصراحة. للفن القدرة أن يعبر عن أى شئ و كل شئ، فى الواقع و الخيال واليوتوبيا، عن كل المعانى و المتناقضات. لكن العبرة بالوسيلة.
- لم أقل ليس لديه القدرة، و لكن هل يليق بالفن أن يعبر عن الشهوة و الرغبة؟!
- لم لا؟ إذا كنا نعكس الشهوة لإعلاء قيمة الروح، كما أن نظهر القبح لنبرز الجمال.
- إذا الغاية تبرر الوسيلة هنا، و هذا مناقض لرأيك بأن الوسيلة هى الأهم، كما أن هذا قد يجعل الوسيلة -و التى هى الفن- غير شريفة! كما أن القبح لا يعكس إلا القبح و الشهوة لا يمكنها أن تعمل لصالح الروح، و الرذائل لا تلد الفض ..

صمتت عن حديثها فجأة و تصلبت مقلتها كأن أحدا
أمسك بلسانها.

— ماذا بك؟ .. لعلك انتبهت أنك من تناقض نفسها الآن!
أنا لم أقل أن للفن أن ينحط لمستوى الشهوة للتعبير عنها،
لكنك من قالت أن للفن تُقدّم أعلى القرابين. ألسنتِ تجعلين
من الفن هنا غاية تبرر كل وسيلة؟!

(كارما) محقة؛ الشهوة لا تعمل لصالح الروح و الرذائل
لا تُؤدّد الفضائل. (آدم) محق؛ هي تناقض نفسها؛ تحرم الفن
كوسيلة لبعض الغايات، الغايات نفسها التي جعلت الفن يوما
شفيعا لها، يومَ كانت لها الوسائل، و كلاهما متفقان -دون أن
يدريا- أن الغاية لا تبرر الوسيلة.. لا للفن و لا لغيره من الغايات.

و حالما لاحظ ما طرأ عليها:

— هل أنت بخير؟ حسبتك تحبين هذا النوع من المناقشات!

— نعم. فقط شعرت ببعض التعب فجأة.

عندما عادت إلى غرفتها، استلقت على الفراش و تطلعت
إلى السقف الذى أفتتنت به منذ مجيئها كما كل شئ فى
المكان. لم يزعجها حديث (سارة) أو اختلاف تعبيرها الفنى

عما تفضل كما أخبرته. لم يزعجها اتهامه لها بالتناقض فهي تعلم أنه محق، حتى أنها أدركت ذلك قبل أن يتفوه هو به؛ كم من مرةٍ خلال السهرة دوت كلماتها في أذنيها كأبواق القيامة! تنبهها كم من فعل لها ناقض معتقداتها التي تعبر عنها بتلك الكلمات. شيئان فقط أرقاها وهي مستلقيةٌ هناك. أولهما عدم انزعاجها في الأساس لهذا التناقض ولا التأثير بصوت الأبواق، حتى عندما عاودتها صورة من تلك الليلة. لربما سر ذلك يكمن في الآخر.. ذلك الذي يتحرك في صدرها و يشتد؛ ما هذا الذي تشعر به؟! (آدم) هو ملاكها الذي سيرشدها إلى الحقيقة والخير والجمال. جاءت إليه من بلادها البعيدة كحاج يطلب التّطهر من الذنوب. جاءت له لا لغيره، ليفسح أمامها سبل الروح بالفن. ما يحدث بالنسبة إليها هو دربٌ من المعصية. رغما عن اليوم الزاخر الذي مرت به و كل ما أصابها من فكر، إلا أنها تلك الليلة لم تضطر لمقاومة ألواح الخشب، أو الوقوف فوق القمة المخيفة؛ فقد راودتها أحلامٌ من نوعٍ آخر.. تلك الأحلام الكفيلة أن تجعلنا ننسى كل ما نمر به و نكتفى بالعيش عليها أياما و أياما؛ لا ننسى واقعنا فحسب، بل ننسى أننا -في الأصل- نحلم. تلك الأحلام التي قد تخيفنا قدر ما تبهجننا.

مرت الأيام و انغمست فى دفق من الشعور بالسعادة والإلهام. أصبحت تتنزه فى أجزاء كثيرة من اليوم؛ تحمل معها كتب و أوراق العمل؛ تنمقها و تنهل منها. تجتمع و (آدم) باستمرار. تجلس بجواره يعزف الموسيقى أو يؤلفها - و كم كانت سعادتها حين سمح لها بذلك و فعلتها أول مرة! - تسأله و يتناقشان، خاصة عندما يستثيرها واحد من الكتب التى تعمل عليها. وجدت فى قربه كثيرا من الجمال و الراحة بقدر أعظم من أى شئ، حتى أنه ليطغى على ذلك التيار المورق الذى يملأ كيان الأنثى تجاه رجل، زخما روحيا و وجدانيا أقدس من أى عشق أو وله، فوجدت النشوة الروحية و السعادة الذهنية التى تمننتها دائما. تحضر معه تلك السهرات فإذ لها فوق الحياة حياة مع كل نعمة منه، أو لوحة من (سارة)، أو قصيدة مغناه بصوت (دانى) أو مع غيرهم من الفنانين. لكنها انزعجت منه تلك الليلة و أخبرته بذلك - بعد انتهاء إحدى السهرات فى بيته- لأنه "لم يبد عدم موافقة على تعليق (سارة)":

— هل تعلمين (كارما)؟ لا تليق الروحانية لكِ.

— و ماذا يعنى هذا؟!

— جمالك جرى، ما هو ببرى. شفتاك الممتلئتان باستدارة تبرزان شهوانية عارمة. عيناك الواسعتان يدلان على الرغبة فى المزيد، و لونهما الأخضر و وميض النار فيهما يعكسان غضباً و نقماً و قدرةً على الاشتعال و التدمير.

ضحكت (كارما) و أخبرتها أنها ستعتبر حديثها إطلاءً، لكنه أثار فيها استياء شديدا حتى هى لم تجد له مبررا. صاحبها ليالى و عاودها بشكل خاص كلما تذكرت رده: ”لا أعرف! و لكن (سارة) رسامة، و هى الأقدر على قراءة الوجوه و تحديد الملامح.“ و لربما ما أشعل استيائها أكثر، تلك النظرة فى عينيه لحظات نطق (سارة) بكلماتها. لم تستطع أن تمسح عن بالها صورة وجهه، كيف نظر فى تقاسيم وجهها ثم أشاح بصره عنها، كأنه قرأ توا كل ما قالته هذه الرسامة.

فى إحدى الليالى عندما كانا مجتمعين على العشاء، ترددت نظراتها بين وجهه و الطبق أمامها قبل أن تتفوه بتلك الكلمات:

— هذا العصر بينما أتناول القهوة فى المدينة و أعمل على واحد من الكتب، رأيت أمامى إعلانا أثار انتباهى كثيرا.

— و ماذا كان؟

— كان لشقة صغيرة فى المدينة، تماما فى المكان الذى أحب التواجد فيه.

— أنت تفكرين بالانتقال؟!؟

— لقد تحدثت إلى المالك بالفعل. سأنتقل الأسبوع القادم.

اقتضب وجهه، و لم ينظر إليها أو يعطها ردا.

”أستاذ (آدم) أنا شاكرة ج..“

— و تعتذرين على الإزعاج. ...

”فقط لا أحب أن تتم مفاجأتى على هذا النحو (كارما)!

أعنى أن كان بإمكانك إخبارى بينما تخططين؛ أقل شئ لساعدتك.“

— حضرتك لم تدخر جهدا فى مساعدتى أو إكرامى، كما أنى لم أتعمد عدم إخبارك، و لكن هذا ما أنفقنا عليه مذ دخلت هذا المنزل و لا يمكننى أن أبقى عبئا عليه أكثر.

— ” (كارما) أنت جزء من هذا المنزل الآن، ألا تعين ذلك؟!؟

احمرّ وجهها و تعالت نبضاتها أكثر مما هى عليه. توا استأنف:

و لكن بالتأكيد كما ترتاحين. فقط تذكرى دائما

أن هذا أيضا منزلك و أننى.. و أننا أهل لك هنا.
توقف قليلا ثم تبسم مضيئا: و آمل أنك تدرकिन الآن أننا
هنا لسنا ملائكة كما اعتقدت لحظة مجيئك. نحن فقط مختلفون
عمن عرفتهم قبلا فى حياتك. أتمنى أن أكون جعلتك تقتربين
من هذه الحقيقة، لأنك ستكونين بحاجة كبيرة لمواجهتها.
— لا أعتقد أنى تدربت على ذلك كفاية أو أنى سأفعل ما
دمت أسكن منزلك أستاذ (آدم). سيظل هذا المنزل بالنسبة
لي قطعة من الفردوس تحرسها الملائكة فوق الأرض.
ظل محتفظا بابتسامة ضعيفة على ثغره بينما استأذنته
وذهبت للفراش. عندما قامت تبعها بعينين غيمتهما العاطفة،
مرددا فى نفسه: ”(كارما) ! أنتِ الملاك الوحيد هنا.“
أغلقت باب غرفتها خلف ظهرها و دقات قلبها تكاد
تشق صدرها. حديثه و نظراته فتحا فى داخلها الباب على
مصراعيه، ليقف قلبها عاريا أمام ذلك التيار العنيف. لا يعلم
كم من طاقة روحية و ذهنية بذلت كى تقاوم عكسه و تسد
بابه. ترى كيف لها أن تفسر كلماته و تقرأ نظراته وسط تلك
العاصفة فى قلبها و عقلها؟ لم تفكر قط أن تيارا مماثلا قد
يجتاح صدره و لن تفعل الآن، و لكن.. لم كذبت عليه ثانية؟!

ماذا أرادت أن تختبر؟ ماذا أرادت أكثر من أن تكون بهذا القرب؟! ليس فى نيتها الابتعاد عنه شبرا واحدا، و لكن ربما لم يكن من قولها مفر حفظا لكرامتها و حدود اللياقة. إذن لم تخبره الحقيقة ببساطة؟! إنها تحدثت مع مالك إحدى المنازل المجاورة و لن تبتعد إلى المدينة، و إن ذلك مع بداية الشهر و ليس الأسبوع القادم! كم تمننت لو أنه طلب منها البقاء! لتخبره أن ذلك أكثر ما تود فى هذا العالم، وأنه مهما اتسع أمامها الأفق.. سيظل قربه براحها الأمثل.

الفصل التاسع

مر يومان آخران لم تره فيهما. كانت (بلقيس) معها باستمرار حسب طلبه، -”كى تساعدها فيما قد تحتاجه قبل الرحيل.“- حتى أيقظتها ذات صباح للفطور و أخبرتها أنه بالأسفل. رغم تلك القفزة عن سريرها، تهادت و هى تنهى السلام الأخيرة نحو الطابق السفلى مرتدية فستانا ليلكيا صباحيا و سترة بيضاء حتى خصرها. توجهت نحو زاوية المائدة؛ رآته جالسا على كرسيه مستقبلا بابتسامة مشرقة. كان ناضجا و دافئا كشمس الضحى. ابتسمت له و ابتسم قلبها من قبل عينيها و شفيتها. لم يتبادلا حديثا، لكن حتى صمته.. كان له في نفسها موسيقى و فى قلبها إيقاع. شعرت بموجة من الأمان و السعادة لرؤيته ووجوده قربها ثانية و إن كانت مرتها الأخيرة.

بعد الفطور، جلس على البيانو و هى قريبة تشاهده كما اعتادا. لم تحتج كثيرا من الوقت أو إعمال تقديرها الموسيقى كى تدرك معانى الموازير؛ هى معزوفة الوداع دون شك، لكن لم يكن

الوداع هو كل ما تحمله ؛ ثمة شئ آخر تخشى أنها لا تفهمه ، أو ربما تخشى أنها تفهمه . عندما انتهى استدار لها ؛ لم يسألها عن رأيها كما يفعل دائما . أطالت إليه نظرة يملؤها الشوق والسؤال ، وبادلها بكثير من المعانى فى عينيه و على بسمه شفقيه .

— هيا (كارما) ! تأخرتِ على نزهتك الصباحية .

— لا ! أفضل أن أكون برفقتك .

— لا ! أنا من سأكون برفقتك .

غلب الصمت بدايةً خطواتهما وسط الطبيعة الولود ، حتى

تعانقت كلمتهما : ”ستزورين..“ ، — ”أتعرف .. ؟“

عندها تعانقت ابتسامتهما أيضا .

— ماذا ستقولين؟

— تفضل أنت أولا!

— السيدات أولا! كما أنه لم يكن شيئا مهما ؛ أنا أسمعك .

— مرةً سألت ماذا سأفعل إذا تبقى لي يوم فى هذه الحياة ،

و بإمكانى فعل أى شئ؟

— و بم أجبت؟

- أن أقضى يوما برفقتك! أذكر حينها كيف ضحكت صديقاتي منى و تغامزن علىّ. أول ما قفز إلى ذهنهن من معنى بالطبع أنت تفهمه، لكنهن لم تفهمن أبدا. ما عنيته أن أقضى معك يوما عاديا من أيامك؛ نتناول معا الغداء بينما نتحدث عن أمور الفن و الروح و الوجود؛ تعزف لي الموسيقى؛ أجلس فى صمت أتأملك مكبا على نوتتك فى تركيز تام تؤلّف بين حروفها؛ أراقبك بينما تمارس تفاصيل حياتك.
- و لم كل ذلك (كارما)؟! لم كل هذا الولع بي أنا؟!!
- ليس ولعا! إنه تقديس. أردت ذلك لأنى لم أعتبرك يوما بشرا. رأيتك شيئا أرقى و أقدس و أنقى منا نحن البشر.
- هل تحبيننى (كارما)؟
- صدقنى لا أعرف.. أنت خاصّ جدا بالنسبة لى (آدم)؛ أنت مقدس بالنسبة إلىّ. أنت تمنحنى إلهاما لا يمكن لأى شئ فى هذا الكون أن يمنحنيه. فنك يعطينى إحساسا بالحرية، بالأوثة، يملؤنى بكثير من الشغف تجاه كل شئ فى هذه الحياة. حقا أنا لا أعرف ماذا قد يُسمى هذا الشعور، و لكن هذا أنت بالنسبة لى.

تصاعد تيار قوى من المشاعر و الصفاء بينهما، طلّ بقوة
من نافذتى عيونهما.

— هل تتزوجينى (كارما)؟

— لا (آدم)! لا يمكننى ذلك. لا يمكننى حتى أن أتصور نفسى
بين أحضانك!

— لم أحسبك تبغضيننى كرجل!

— بالطبع لا أبغضك! و لكن أخشى إن سكنت أحضانك أن
ألوث طهرك و قدسيتك بآثامى البشرية.

— بريك (كارما)! ماذا تقولين؟! لست ملاكا! أنا بشر مثلك
و مثل الجميع.

— لا لست بشرا، و لست مثل الجميع. من غير الممكن لمن
تخصه السماء بهكذا إبداعا ليخلق تلك الموسيقى و يمنح ذلك
الفن أن يكون بشرا مثلنا! و مهما حدث لن أفتنع بغير ذلك.

— بل أنا بشر (كارما) و سأثبت لك ذلك.

طوّق خصرها بذراعيه و أودع روحه و قلبه قبلةً بين
شفتيها.. عندما حررها من قبضة شفثيه، ظلت ملتصقةً
به و راحتها مسترخيتان على عنقه الصدفيّ. حتى همس:

- أنا آسف (كارما).. أنتِ صغيرة جدا.. وجميلة جدا جدا،
و أنا رجلٌ أعياه الحب هجرا و غدرا و حرمانا. أنا..
- أنت .. و ما أدراك ما أنتِ !
- إبقى (كارما)! إبقى فقط إن أردتِ البقاء، لا أريد لشبابك
الندم يوما.
- (آدم)! أنت كل ما يمكن أن أحب في هذا العالم!
- أحبك (كارما). أحبك بقوة و أقسم أنني أبدا لم أفكر أن أستغفرك..
- لقد جعلتني الشخص الذى طالما أردت أن أكون.
- إذن نخب البدايات الجديدة! نخب القدر الذى هو أجمل
من أى شئ! نخب الحب! نخب الجمال.. نخب السعادة!
نخب الآتى الذى هو لنا .. نخب ماضٍ راحلٍ لا يهمننا
فى شئ! نخبنا .. نخب لقائنا!
- و ليطو الزمان إحدى صفحاته فتصبح فى طيِّ النسيان،
لنستقبل فجرا جديدا .. سماء جديدة، أرضا جديدة.
ليس للماضى مكان، ليس للندم مكان. الإلهام لنا سماءُ
وأرضُ، هواءٌ و مطرٌ؛ الحب وسيلة، و الروحُ هي الشريان.

فى الليل تعالت موسيقى راقية ذات إيقاع لا يضاهيه جمال من مكتب (آدم أبيض). لم يكن عزفا له، و لم تكن سهرة فنية بمنزله؛ كانت واحدة من أسطواناته أدارتها (كارما) و راحت تدور و تتمايل عليها كما امرأة ليست سواها من أنثى فوق هذه الأرض. جلس على أريكة يشاهدها فى تفاصيلها و بسمه مستنيرة تضى وجهه. نهض بهدوء و اقترب منها ممسكا بذراعها، لكنها رقصت مبتعدة. اتسعت ضحكته و عاود الاقتراب، لكنها كانت تنفلت بنعومة من يديه كل مرة. حتى ضحك قائلا:

— (كارما) ! من أخبرك أنى سألعب هذه اللعبة؟!

— و من أخبرك أنى ألعب؟

— و ماذا يفترض بهذا أن يعنى؟!

أمسكت به من ظهره و قبلته فى كتفه:

— أحببتك ملاكا جنته يهون عليّ أوجاع الحياة بروحه، ينير جنباتها بنوره و يوارى صلاحها بظله، فلا تلومنى إن تهربت من بين ضلوعك، فلست ملاكا، و أخشى على نورهم من آثامى.

التفت ناظرا فى عينيها بحب و عطف و قال مازحا:

— إذا ربما (سارة) ستجيد الرقص معى على هذه الموسيقى.

— وكذا لا يمكننى أن أقبل برؤية غيرى بينهم، وإلا لا تكن ملاكى، وأنا لا أحب بشريا!

وقفت أمامه صغيرة وجميلة؛ تنظر إليه نظرة طفلة لحامل الحلوى ليلة العيد. رمت نفسها بين ذراعيه فضمها ببالغ من الحنان والضعف. كانت ليلتها الأولى فوق صدره كنعيم الأحلام؛ ينسبك ما دونه؛ كل ما نخبئ فى أعماقنا من ذكرى، أو نحمل فى ضمائرنا من فكرة يبدو صدى لم نسمعه يوما فى غمرة انتشارنا بطربه.

— هذه اول مرة أشعر أنى أحب هذا الجسد دون أن أنقم عليه أو أود الانتقام منه. لقد هديت روحى وأرشدت ذهنى، و الآن.. جعلت لهما وصلا فى جسدى.. ذلك القلب الذى ينبض لك وحدك (آدم).

اتكأت على كوعها ونظرت فى عينيه. أزاحت عن جبهته خصلة من ذهب شعره الذى غازلته الفضة:

”تلك السهرة الأولى مع (دانى) و (سارة) أردت أن أسألك سؤالاً بعدها لكنى لم أجرؤ.“

— ماذا بر(دانى)؟

— ماذا بـ(دانى)! من قال أنى سأسألك عن (دانى)؟! كان
سؤالا بشأنك أنت و بشأن الحديث الذى دار تلك الليلة!
ضحك و هو يمرر يميناه عبر شعرها وصولا إلى كتفيها ثم
يعاود الكرة:

— حسنا! و ماذا كان؟

— أذكرك قلت أن بالفن نستطيع التعبير عن كل شئ و الأهم
هو الوسيلة الفنية.

— نعم. أعرف أنى قلت، كما أعرف أنك لم تتوقفى عن
التفكير فى ذلك الأمر أبدا. و الآن أخبرينى! ماذا تودين
أن تسألى أيضا؟

— هل عبّرت بموسيقاك قط عن شهوةٍ أو رغبةٍ بامرأة؟

— لا أعرف! ربّما.

— هيا (آدم)! كن صريحا من فضلك!

— لا أعرف؛ حقا لا أعرف! أعنى .. ربما قد فعلت و لكنى
لا أدرك، أو لم أدرك ذلك وقتها.

— بحق السماء (آدم)! أنت رجل ناضج؛ لا يمكنك ألا تعرف!
من سيعرف إذن؟!

ابتسم من جزع تلك الطفلة و توترها و قال :

— هل تعلمين؟ أذكر أيضا قولك إننا مميزون بين جميع
الحيوانات، و هذا صحيح بالتأكيد، لذا أنا أقول إننا نميل
دائما إلى تزيين المشاعر -على حسب حاجتنا- إلى أقصى
حد، و التي قد تكون فى أصلها خالصة و واضحة لغيرنا
من الحيوانات. بمعنى أنى قد أكون ألفت أعظم مقطوعة
موسيقية عن الحب العذريّ الخالد، و لكنى لم أشعر فى
داخلى بذلك على وجه كاف، أو حتى شعرت بداخلى بما
ينافى ذلك، و لا أعتقد أن هذا يجعل منى إنسانا سيئا
(كارما)، فنحن بشر على أى حال.

— إذن أين الغاية و أين الوسيلة (آدم)؟!

— الغاية هى الوسيلة (كارما)! هى التعبير.. التعبير بلا
حدود. التعبير بلا قيود. التعبير بلا تفكير.. فقط التعبير!

— التعبير الضال!

قهقه مداعبا غرتها :

— يا لمصطلحاتك! و لكن صحيح! ربما هو زال عن مصدره،
لكن صدقيني! لن يضل وجهته أبدا؛ لابد و يصل فى
النهاية لسطره الصحيح من الرواية، لذا أنت هنا يا
صغيرتى.

— نعم.. أنا مقطوعتك الضالة. (قالت بشرود قبل أن تحيطه
بذراعيها و تدفن رأسها فى رقبتة.)

اليوم التالي حضر الجميع فى منزلهما احتفالا هو المفضل
لها. ليس فقط لاقترانها الأبدى بملاكها، و لكن لجلوسه العزيز
على البيانو مع اقتران أنغامه بصوت (دانى). تلك اللحظة لم
تحدد وقتا و لا مكانا و لا رفقة. فقط فكرت فى كونها امرأة
محظوظة جدا، لتحظى حواسها بأنامل (آدم) و حنجرة (دانى)
فى الوقت ذاته! ”هذه الأرض -حقا- حافلة بالملائكة!“
و فى واحدٍ من تلك الأيام التى يقدر لنا فيها الاستفاقة من
شهد الأحلام، بهزةٍ عنيفة بيد الزمان، الذى يأبى أن يخذعنا كما
نخدع نحن أنفسنا - فلا أحلامنا حقيقة و لا الفردوس فوق الأرض-،
كان (آدم) يعمل فى مكتبه حينما دقّ بابهما زائراً لا ينتظره أحد.

الفصل العاشر

عادت ذلك اليوم تحمل بين يديها لوحة المرأتين فى سعادة بالغة. لا تطيق الانتظار حتى تصل فتخبره أنها حصلت عليها أخيرا، كم انتظرت كى يُفتح المزاد بشأنها، وكم وجدت من صعوبة حتى أصبحت لها. لحظة دخولها المنزل انفتحت أمامها باب المكتب و خرج مشيرا لها بالدخول.

— أمن أمرٍ هناك (آدم)؟

— لا. أين كنتِ طوال النهار؟

— ليس فى مكانٍ محدد. جلت فى المدينة و دخلت الأوبرا، و لن تصدق ماذا؟! حصلت على اللوحة التى أريتك إيها سابقا. انتظر سوف أحضرها!

همّت بالخروج - من المكتب - فجاء صوته جلا:

— (كارما)! أنتِ لم تخبرينى أبدا عن تلك الحادثة؟!!

— أية حادثة؟!!

— اغتصابك! أعنى أريدك أن تشرحى لى التفاصيل من فضلك!

- نعم! (آدم) ماذا تقول؟! —
- تماما ما أقول. أريدك أن تخبريني من فعل ذلك؟ كيف؟ أين؟ و كل ما تذكرين من تفاصيل، و بالطبع تفاصيل كهذه لا يمكن أن تُمحي من الذاكرة.
- (آدم) هل تمازحني؟! (صمتت و أطالت النظر فى عينيه تحاول أن تستنبط ما أصابه، و رغما عنها انفلتت دموعها) اللعنة! لمَ تحاول أن تذكرنى بشئ كهذا؟! —
- كان ينظر بعينين تملكهما الوعيد أكثر من الشفقة، و قضى على عاطفتها الغضب:
- والدتك تريد رؤيتك بالمناسبة.
- لم تكن بحاجة أن يتكلم أكثر أو يطيل إليها النظر بهاتين العينين لتفهم أن شيئا قد حدث و فضح له أمرها كله. انهمرت الدموع من عينيها دون انقطاع و هى تمسحهما و تحاول أن تتحدث، لكن لم تطعها الكلمات فى الخروج من فيها.
- لم فعلت ذلك؟..؟! لم فعلت ذلك؟ (صرخ فارتعدت فى مكانها).
- يمكننى أن أشرح.. —

— ماذا ستشرحين؟! ستخبريننى كم أنتِ مخادعة أو كم أنا غبى! تنامين مع أحدهم ثم تأتين إلى بيتى مدعية البراءة..
صرخت كى تُسكّته لكن صوته كان يزداد حدة و غضبا:
.. لتحديثنى عن الروح و المثالية!

سقطت تبكى فى غير تصديق على المقعد خلفها، بينما
واصل حديثه المهين بشأنها فى غير رحمة:

.. بسيطة! أليس كذلك؟! ثم تفتكين بفريستك الجديدة
فيسقط تحت قدميك طالبا الوصال، لكنه أغبى من ذلك الذى
سبقه فيتزوجك، و لا تنفكين تحديثه عن انحطاط الرغبة
الحيوانية لدى النفس البشرية! أليس كذلك؟!

— لا يا (آدم)! ليس كذلك، و لن أسمح أن تتحدث معى
هكذا! أنا لم أطلب منك شيئا يوما. لم أسألك حبا أو
وصالا. أنا لم أرد سوى إلهامك و أن أحيأ على أنغامك.

— حقا؟! إذن أى نوع من الفنون كان يجيد ذاك؟

— تظننى أردت ذلك .. أتظننى أردت ذلك؟! أتظننى لم أمقت
تلك الليلة المشئومة بكل لحظاتها، بكل ذرة فى كيانى، و
لا أزال أصارعها فى ذاكرتى؟!!

جلس على الأريكة بأنفاس متسارعة وعينين متعبتين ينطلق
منهما الشرر المميت.

- إذا هل يمكنك أن تقولى لم فعلت إن لم تريد ذلك؟!
- نعم يمكنكى، ولكن بتُّ أشك أنك ستفهم. تفهم أنى أردت
ذهابا بلا عودة، بلا عودة مهما حاولوا أو مهما أرادوا .. و
حتى إن أردت أنا ذات يوم. أردت أن أتحرر من نفسى. لم
أرد أن أهدد بقائى هنا أو تصديقك إياي.
- أردت رحيلا بلا عودة. أردت أن تتحررى من نفسك. أردت أن
تجعلينى أصدقك، بالطبع لأنك لا ترغبين سوى أن تستمتعي
بروحانية فنى و أنغامى. هذا على أساس أنى كنت
لأصطحبك للطبيب فى حال لم أصدقك، أليس كذلك؟! أو
أنك كنت تعرفين تماما إلام تصبين و كيف ستصلين إليه؟
كنت تعرفين أنه سيأتى يوما ..

— يكفى (آدم) هذا يكفى!

- ماذا؟ هل صدمتك حقيقتك إلى هذه الدرجة؟! الاحتمالان
صحيحان (كارما)! - رغبتَه و رغبتِنى-، و هذه هى
الحقيقة.. حقيقتك! .. و لكن تعرفين ما الأسوأ؟! أنك
بررت ذلك لنفسك ببراءة عظيمة و تلفيق -بحق- مبهرا!
حتى الشيطان.. لا يجرؤ عليهما.

هبت من مكانها و تحدثت فى حدة؛ لا تنفك تحاول
إيقاف دموعها:

— لا ليست تلك الحقيقة! الحقيقة أنى رغبت أن أحيا هذا
كل ما رغبتة. رغبت أن أحلم، رغبت أرضا تشرق فيها
الشمس. رغبت نفسى .. لم أرد أن أخسر روحى. خفت
أن أستيقظ يوما فأجدنى مثلهم! بحثت عن منفذ للنور،
للهواء، للروح، منفذ للحياة. كنت أقوى من هؤلاء الذين
يهربون من جحيم بلادنا بالموت، وهو المنفذ الأكثر شيوعا
إن يهملك أن تعرف! استيقظت يوما و قررت أن أنفذ بجلدى
—بلا عودة— من أرض القحط الإنسانى. عرفت أنى سأتى
هنا فأولد من جديد و أتطهر من ذنوبى.

(قالت جملتها الأخيرة بوهنٍ كأنها تتوسل.)

— ألم تخسرى روحك يوم فعلت ذلك؟! ألم تشعرى أنك واحدة
منهم؟!!

قالت بينما تتوجه نحوه:

— لا لم أخسرها. هل تعرف لم؟ لأنى وجدتها هنا أول مرة.

اقتربت منه بشدة و شدت بيديها على صدر قميصه .
 قالت بلهجة يملؤها التحدى رغم دموعها :

ولا (آدم) ! لم أشعر أبدا أنى واحدة منهم ، و تعرف ماذا
 أيضا؟ ! لست نادمة على ما فعلت ، و إن عاد بى الزمن و عرفت
 أنه الطريق الذى سيبقىنى هنا و يجعلنى قريبة منك سأسلكه ثانية .
 نظر فى وجهها بضعفٍ و امتهان ثم نطق :

— ليس بعد الآن .

علمت أن لم يُعد لها مكانٌ هناك . هكذا هم تائبو جهنم ؛
 تكتب على جبهاتهم الخطيئة أبدا ، و لكن حتى التوبة ..
 فهى للذين يفعلون السوء بجهالةٍ ، و هى ليست منهم . عسى
 أن تحظى بتوبة المولى كـ(آدم) آكلا من شجرة الخلد غير جاهلٍ
 حرمانيتها ، ولكن ماذا كان الثمن؟ طرده من الجنة .

كانت ترتدى قميصا أسود حتى ركبتها عاقصة شعرها
 فى بوهيمية ، تنتظره خلف إحدى النوافذ الزجاجية الكبيرة
 وقد جفت عيناها و انتفختا من البكاء .

— أسمع بكاءك منذ خمس ساعات متواصلة على أقل تقدير.
كفاكِ أيتها الشابة! لا يستحق الأمر كل ذلك.

— لعلك ستترتاحين مني أخيرا سيده (بلقيس)، لكنى سأشتاق
إليكِ صدقينى.

— لن يدعكِ ترحلين (كارما).

— لقد طردنى تقريبا.

نظرت لتلك المرأة - التى بدت واثقة مما تقول- و فى
لهفة و انفعال أضافت:

و لكن لم تقولين ذلك؟! هل حدثك شيئا؟!

— لقد حدثنى كثيرا وحدثته أكثر و لكن ليس اليوم. لو كان
فى نيته أن يدعكِ ترحلين لفعل منذ أول ليلة دخلتِ فيها
هذا المنزل، لكن بدا أنه أراد بقاءك و حرص عليه أكثر
مما فعلتِ أنتِ.

أنصتت (كارما) إليها كما لم تنصت لصوتٍ من قبل:

— أذكر أنى أخبرته بداية وجودك أنه ما من فتاة تمر
بمثل تلك الظروف التى أخبرته بها، توافق أن تبقى
فى منزل رجل غريب مهما وصل صيته أو وصلت ثقتها

به. كنت أعرف أنه ليس رجلا ينقصه العقل أو الخبرة ليدرك ذلك! لكنى أخبرتته. لحظتها أدركت أنه لم يسمعنى كما لم يستمع لأى منهما. هل تعرفين؟ أعتقد أنه عرف منذ البداية دون أن يخبره أحد، أعتقد حتى أنه عرف عنك ما لم تعرفيه أنت - أيتها الصغيرة-، لكن كان صوت أمله فيك و تعلقه بك أعلى مما سواه. لذا أنا أخبرك أنه لن يدعك أبدا، حتى و إن أخبره أحدهم المزيد.

— إذن ماذا تظنينه سيفعل؟

— لا أعرف! لكن كليكما خدع نفسه قبل أن يخدع الآخر، و ها أخيرا قد حان الوقت لتتوقفا عن ذلك.

كان لحديثها وقعٌ غريب على (كارما)؛ أقله أراحها ظاهريا.

كانت تتلملم فى فراشها؛ تحاول الخروج من ذات الحلم الذى يتركها كل مرة أعلى الجبل فى مواجهة البحر. فتحت عينيها عليه واقفا أمامها. تشبثت ببنتاله و نظرت إلى وجهه عليها تبصر عينيه فى ظلام الليل، لكن لم تكد تتبينهما برؤيتها الغافية؛ فما حدث بعدها لم يشبه شيئا مما حدث بينهما من قبل. لم يكن عذبا كنعيم الأحلام. كان سهوانيا كأحلام الشيطان.

فى الصبأ نهُضت تُشعر بأرهاق شديء وحدها مع بقاياها فوق فراشها. من النافذة الناقوسية كان الهواء يغريها بالنزول إليه، و الطبيعة تءءوها للارتماء فى أحضانها. حزنء لشعورها بءءم القءرة على التنزه. عنءما أحضرت لها (بلقيس) الفطور سألتها عنه، فأخبرتها أنه خرج قبل قليل، و سألت بدورها:

— هل سءخرجين اليوم؟

— لا سيءة (بلقيس). لا أشعر أنى بخير.

اسءمعت إلى واحة من موسيقاه التى ءءء منها الشفاء دائما و هى ءءناول بعض رقائء الفطور، لكن شعورها بالإعاء كان أثقل من الءواء، فءمءءت وءطء فى نوم عميق لم ءفق منه إلا عصرا؛ حينها أخذء ءماما ءافئا و ارتءء قميصا قطنيا أبيض ءءوسط الطول، و سءرة سوءاء فى نفس طوله. نزلء الطابق السفلى و ءون أن ءنظر نحو غرفة مكءبه، فءءء باب المنزل. فءاء الصوت من خلفها:

— هل سءخرجين؟

— ءسنا سيءة (بلقيس)! ما بكِ ءكررين هذا السؤال على مسامعى اليوم كلما رأيتنى! كما هل أءء لك أنى سأفءل؟! سأروى زهور الءءيقة فأءء لم يعرها انءباها منذ مءءة.

أمسكت نبريج المياه ووقفت توزع الحياة على الزهور
و النباتات التي كانت على وشك الاختناق. توقفت سيارة
بجوار المنزل، فاقتربت تطل برأسها لترى ذلك الظل القادم
نحوها. كان هيكلا تميزه، و ووجهها تحفظه و عطرا لا يمكن
أن تنساه. أفلتت النبريج فارتطم بالزروع و غمرها فى فيض،
بينما التصق جسدا المرأتين فى لوحةٍ حيّةٍ تختصر كل معانى
العاطفة الخالصة و الحب الحقيقى و الشوق النقيّ، الذى لا
يُرى ولا يُوصف إلا فى عيونهما و أذرعهما الملتفة حول بعضهما
و أصابعهما المتشابكة.

فى الداخل، كانت أمها ترتشف رشفتها الأولى من عصيرها
الأخضر المفضل عندما سألتها (كارما):

- كيف وصلتِ إلىّ؟
- جنّت مع (ريان).
- أمى! ليس هذا قصدى و تعلمين.
- لا أعرف! هو من بحث حتى عرف مكانك، برجاء منى
بالطبع.
- أو أنكما استخدمتما رسائلنى لتتبع مكانى!؟

- تقصدين رسالتك! لا أعتقد ذلك، فقد أخبرنى أن من الواضح أنك قد اتخذت كل الاحتياطات -كعادتك- عند إرسالها حتى لا يمكن تتبعها. و لكن ربما! لا أعرف!
- هل هو فى السيارة؟
- لا! هذا سائق، و هذه السيارة مستأجرة.
- بالطبع! لن يجرؤ على مواجهتى بعد ما أخبر زوجى البارحة.
- لا أعرف ماذا أخبره غير أنهما دبرا موعدا لأراك، و لكن أعرف أنه لم يأت لأن زوجك اتصل و طلب عدم مجيئه أبدا أو اقترابه من المنزل.
- بالطبع سيطلب ذلك، و هذا أقل واجب. هذا الغبى المتبجح أخير (آدم) بكل ما حدث بيننا قبل أن آتى هنا و ألتقى به.
- و ماذا حدث بينك و بين (ريان) قبل رحيلك؟!
- أمى بالله عليك! لا تتظاهري و كأنه لم يخبرك.
- (كارما)! طالما علمت أن لديك أسراراً، لكن لم أعرف أن (ريان) كان واحدا منها.
- تطلعت (كارما) أمامها مدهوشة لا تدرى ماذا تفكر!

”ربما هو لم يخبر (آدم أبيض) أيضا!“ أضافت والدتها.

بعد لحظات حاولت أن تطرد عنها أفكارها المتصارعة

بشكلٍ مؤقت :

- المهم، أخبريني! كم ستبقيين من الوقت؟
- سنغادر عصر غد.
- و لم هذا الاستعجال؟
- لا أعرف (كارما)؛ هذا ما حدث. لم نعرف كيف ستؤول الأمور و لم نحجز سوى يومين، لكن مؤكد سنلتقى قريبا ابنتى، وربما أنتِ من ستأتين المرة القادمة.
- ابتسمت باتساع من دهاء المرأة الذى عهدته دائما و أجابت :
- لا أمي! أنت تعرفين أنى لن أعود إلى هناك أبدا. بشكلٍ أو بآخر أنتمى إلى هنا، لهذا البيت بالتحديد.
- (كارما) .. ألم يكن هناك منفذ آخر؟
- غير الرحيل لم يكن منفذا يا أمي! ربما تختلف الوسائل، و لكن عن الرحيل ما من بدائل.

الفصل الحادى عشر

استيقظت - فى اليوم التالى - مع انفتاح باب غرفتها:

— (آدم)! متى عدت البارحة؟

— باكرا! و لكنك كنتِ نائمة؛ هل أنتِ بخير؟

— أشعر بثقل فى رأسى و أطرافى.

— بالتأكيد! لأنكِ تنامين حتى هذا الوقت.

— كم الساعة؟

— تخطت الواحدة ظهرا.

هبت عن مضجعتها و سألت فى توتر:

— ماذا؟! ألم تتصل أُمى؟

كان يتفحصها فى هدوء من أعلى إلى أسفل جسدها مستندا

إلى نافذتها الناقوسية، و نطق ببرود:

— بل اتصلت! و قالت إنه من المفترض أن تلتقيا فى مكانٍ

ما -لا أذكره- قبل رحيلها.

حدثته من خلف باب الحمام:

— نعم أعرف و لمَ لمَ توقظني؟!

— لأنى أخبرتها أنك لن تذهبي إلى أى مكان.

فتحت الباب و وقفت تنظر إليه لحظة قبل أن ترد متوجهة

نحو الخزانة:

— (آدم) ليس لدى وقت لذلك الآن؛ يجب أن أرى أمى قبل

أن تغادر.

— لن تخرجى من هذا المنزل (كارما). يمكن لوالدتك أن تأتى

لتراكِ.

التفتت إليه و قد أمسكت بمعطف طويل و قالت بجزع:

— و لكن كيف؟! طأرتها ستقلع عصرا لن تملك الوقت الكافى!

— لا أعرف و لكن أظن من حقك أن تعلمى أنك لن تغادرى

هذا المنزل أبدا من الآن.

حدقت إليه بذهولٍ و غضبٍ ثم سحبت نعلا من خلف

باب الغرفة؛ فتحتة و خرجت. ارتدت معطفها لكنه أمسك

بذراعها قبل أن تهبط السُّلم:

— أخبرتك أنك لن تذهبي لأى مكان. (سحبها من جسدها بغلاظة نحو غرفتها.)

— اتركنى! هل أنت مجنون؟!

— سبق و تركتهم من أجلى؛ لم تبحثين عنهم الآن؟! (وضعها فى الغرفة و أقفل عليهما الباب.)

كانت تنظر إليه بصدمة و نقم. تصرخ و تخط على الباب بكل ما فيها من قوة:

— أخرجنى من هنا! هل ستسجننى؟!

أمسك بيديها ليكفهما عن الخبط و صرخ فى وجهها:

— تريدين الخروج من هذا السجن؟! أليست هذه الجنة التى خدعت الجميع كى تدخلها؟!

انفجرت فى البكاء و هو تتوهن و قواها تخور:

— أخرجنى من هنا! لم تفعل ذلك؟! أنا أكرهك .. لم تفعل معى ذلك و قد أحببتك أكثر ما فى هذا العالم؟!

ضمها إلى صدره بقوة بكائها، بقوة ما يشعر من عشقٍ وغيرةٍ و غضب و ما تشعر من ضياعٍ و ضعف. قوة أفقدتهما

سيطرتهما على عقليهما و مشاعريهما و حطمت كل قيود الروح و الجسد، و الشغفِ و الرغبة. بعد مرور وقت لم يحدده أى منهما، نظرت إلى الساعة لتعلم أن الآوان قد مرَّ لتقول وداعا. تطلعت أمامها و قالت بأسى و مرارة:

— ليس هذا ما أردته لك. لم أرد لك النزول إلى هذا المستوى من الحس. أردت لك ما لا يمكن لأحد أن يمتلكه قبلك أو بعدك.. روحى. لم أرد أن أشركك فيما يمكن أن يشركك فيه بشري. لم أردك كسائر البشر.

— لا تثيرى جنونى أكثر بكلماتك اللامعقولة! لم و لن يستطيع أحد مشاركتى بك. أتفهمين؟

— هذا كل ما أدركته من كلماتى اللامعقولة! ...أردتك مرشدا و هاديا. أردتك صورة نقيّة طاهرة، لا تبلى و لا تُدنس! لشخصٍ .. أردت أن أكونه. أردتك فى روحى، حافظا لها من الآثام.

— أنا أيضا إعتقدتِك ملاكا .

— لم أخبرك أبدا أنني ملاك.

— و لا أذكر أنى فعلت!

— لم يكن ضرورياً أن تكون ملاكا. ليس هذا ما أردته لنا! حتى فى وجود العشق بيننا.. الحس يظل حسا. هو و الروح لا يلتقيان أبداً؛ هو معذبها و مشقيها، و قد كانت الروح مخدعك الوحيد من نفسى... سامحنى (آدم)! لم أقصد أن أدنسك أو ألوث طيفك النقى بداخلى، لم أعرف أننا سننتهى هكذا.

و مرةً جديدةً تفقد فيها الشعور بالأمان، بل تشعر أن أمنها السابق لم يكن سوى سراب مجوف بالخوف و محاصر بالحيرة.. من تلك النفس البشرية القابعة بداخلها؛ فشلت تكبحها و فشلت تطلقها؛ حبيسةً فى مكانٍ ما مجهولة أبعاده و أبوابه و سراديبه، مجهولةً هى الطرق إليه؛ تكتفى ببعض من خيوط النور الناعمة التى تصلها من خلف الجدران الخشبية المتعطنة. أيها الحلم البعيد! كيف تتمرد علينا المضع بداخلنا -إلى هذا الحد-، فتحيلك كابوسا يوقظنا فى عمق الليل على الفراغ و الظلام و البرد. آه يا (كارما)! ماذا فعلت و ماذا جنيت؟! كأنها لم تحاول قط، لم تحارب قط، لم تضحى.. لم تبذل كل ما ملكت و ما ما ملكت كى تحطم جدران الغرفة المشنومة و تصل إلى نور الشمس. سقطت عن الجبل فى منتصف البحر، فلم تمر بشاطئٍ و لم تبرا، و لكن إستبدلت قمة الجبل بمركز البحر!

آه! أنى لى أن أعود إلى الديار؟! و لكن أين هى الديار؟
و ما هى الديار؟ فى السماء حيث خُلِقنا ذات مرة؟ أم على
الأرض حيث نولد و نبصر النور لأول مرة ثم نموت؟! ألا من
مروحيةٍ تنقذنا؟! تنشلنا من عرض البحر بعد السقوط؟! أو
منارةٍ تنبه المارين فوق رؤوس الغرقى فينقذونا قبل الغرق؟!
آه يا (كارما)! آه يا نفسى التى بداخلي! ما من مروحية
و لا منارةٍ و لا بر. فقط حلمٌ لم يردنى فيه؛ قذفى من
الأعلى لحوت البحر الجائع الذى لم يُطعم منذ زمن.
مرت أيامٌ أُخر، كثيرة أو قليلة لا نعرف. ربما الوقت
أقصر مما بدا أو أطول لا يهم. لم تختلف الأيام و لم يختلف
الزمن والأحداث. تستيقظ كل يوم بإعياء و آلام متفرقة المصادر
فى الجسدِ و الروح؛ لا تكاد تذكر ما حدث فى الليلة الماضية.
تنظر من نافذتها الناقوسية للمنظر المعتاد فى حزنٍ فاتر.. على
الأقل شئٌ ما حفظته الطبيعة على حاله، و إن لم يُعد بإمكانها أن
تصبح جزءاً منه، و مقعدٌ استقر بالجوار عليه ورقةٌ و قلم هما كل
ما تبقى لديها، رسائلٌ كثيرة غير مُرسلة لأمها و أناسٍ آخرين.
ذات صباح استيقظت على صوت موسيقى اشتاقت إليها
بأصابعٍ تخنقها كل ليلةٍ و يوم؛ تتطاير أنغامها فى الأفق عبر
النافذة السفلية. لم تعرف لم قفزت مبتسمة ذلك اليوم!

ريما لأنه عاد يعزف لها ثانية، أو هكذا ظنت، إذ هو ذا يحيى المعبد بأنغامه من جديد بعدما حرّمها منها ليزيد حسرتها ويحكم خناقه. فتحت دولابها و انتقت الثوب الأجل على الإطلاق. وقفت أمام المرآة، و حينها ذعرها ما رأت! دقت النظر لتلك الفتاة التي ترى، من هي؟ لم تعرفها! تلك النظرة فى عينيها و البسمة على شفّتها -كفرحة ملاك الموت بأجراس مهمةٍ جديدة- تخيفها كثيرا عليها و على من تحب. يا تلك الحسناء فى المرآة! يا صاحبة ذات الملامح! من أنت؟! إنها حتما.. الوجه الآخر.

فى الأسفل وصلت الأنامل لذروة حماسها و هى تدق أجراس النداء لملاكها الصغير احتفالا غير مسمى. ربما بالعودة إلى الجنة و ربما بالاستقرار على الأرض. لكنها توقفت عندما طال عزفها دون مجيب. تركت أصابع البيانو لتدق على باب الحبيب. فتح بابها لكن لم تكن هناك، يصرخ باسمها و لا تجيب، لكن لمح اسمه بخطوطٍ مختلفةٍ مكتوب، على إحدى الرسائل الباقية فوق مقعدها المقلوب؛ فجمع تلك الحروف بخطها بين شتات السطور :

”ولنا حكاية..“

فى جنح الليل الداكن تفرش ثناياها على أسرة الذكريات
 الآثمة؛ تسرد تفاصيلها كاملةً، لتخبر آذاناً لا تسمع فى داخلها
 إلا الصمت، أو أجراس الموت، وليتها تسمع غير ذلك إن أرادت.
 لنا حكاية لن نحكيها هنا، و لكن فى مكانٍ آخر من
 عالمٍ آخر، فى وقتٍ آخر من زمانٍ آخر.. لأناسٍ آخرين،
 أناسٍ لا يتغيرون و لا يتلونون، فى نقطةٍ ما فى عمق الزمن
 الواهى الذى لم و لن ندركه، حيث يمكن للروح أن تسبح خلف
 المرئى و المعقول، لأبعد ما يمكن للنفس أن تتأمل و للعقل أن
 يدرك و للروح أن تصل، حيثما ليس.. للملائكة وجهٌ آخر.“

